فقه التاريخ

في ضوء أزمة المسلمين الحضارية

الدكتور عبد الحليم عويس

الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة
الإدارة : ٧ ش السراى - أول المنيل ت . فاكس : ٩٨٧٩٢٤
الفرع : حدائق حلوان - بجوار عمارات المهندسين ت ٣٧٤٠٠٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ليس التاريخ بالنسبة للأمم مجرد ماض انتهى، بل هو بالنسبة لكل الأمم الحية جزء من النهر الكبير الذى تتدافع بين شطآنه أمواج حضارتها .. فيكاد الماضى ينسكب فى الحاضر، ويكاد الحاضر يذوب بين معبرى الماضى والمستقبل ..

وليس التاريخ مجرد أحداث جامدة إلا لهؤلاء الذين فقدوا وعيهم بذاتهم وحضارتهم ووقفوا عراة يتسولون من هنا وهناك بعض فتات الحضارات المحيطة بهم ...

إن التاريخ هو الكنز الذى يحفظ مدخرات الأمة فى الفكر والثقافة والعلم والتجارب، وهو الذى يمدها بالحكمة التى تقتضيها رحلتها فى الزمان تجاه تقلب الأحداث.

والأمة التى لاتحسن الفقه بتاريخها، أعنى بهذا الرصيد المذخور لديها هى أمة فاقدة للحس التاريخى، مريضة بحالة غيبوبة عن الذات، تائهة - فى النهاية - عن حقيقتها ودورها ومعالم طريقها إلى المستقبل الذى أعدها له القدر الحكيم.

إن تباين الأمم لم يأت عبثا، وإنما جاء لتصنع كل هذه الأمم - بتباينها وتعدد أنماطها وعطاءاتها- رحلة البشرية فى التاريخ، ولتؤدى -كلها- الغاية الإلهية المبتغاة من هذه الرحلة التى يخيل لبعضهم -لقصور فى مداركهم وبلادة فى حسهم الحضارى- أنها رحلة بلا غاية، وأنها لامعنى لها ..ولا حكمة تحكم أشواطها ..

إن (فقه التاريخ) ضرورة لكل أمة تريد أن يبقى لها دور متميز فى التاريخ، وهو بالنسبة لأمتنا الإسلامية شرط من شروط وجودها .. فنحن -فى مستوى العقيدة والعبادة والحياة الاقتصادية والاجتماعية - موصولون بركن من أركان تاريخنا نطلق عليه اسم (السيرة النبوية وعصر الراشدين) .. ونحن نعتبر هذا الجزء من تاريخنا -على الأقل- حياة تعيش فى وجداننا ودماً يجرى فى عروقنا، وهو بعض عقلنا ووجداننا، وهو رسالتنا الحضارية ...

وإذا ما استثنينا هذا العصر الذى يريد بعضهم حصار تاريخنا النموذجى فيه، بل يريدون تشويهه أيضا دون اعتبار للطبيعة البشرية.. إذا ما استثنينا هذه الفترة .. فنحن -أيضا- لانستطيع إغفال ما أعطته لنا القرون الأخرى من علوم إسلامية فقهية وقرآنية وعلوم لغوية وأدبية وتجريبية، وعلوم الدفاع عن العقيدة بمناهج كلامية، ولا نستطيع إغفال الفتوحات الإسلامية، ولا صفحات الأمويين والعباسيين والمماليك والأيوبيين والعثمانيين... على الرغم من وجود أخطاء لهم.

إنهم تجربتنا فى التاريخ وعبرتنا وإيجابياتنا وسلبياتنا وبعض شخصيتنا، ولا نستطيع أن نمزق صفحتهم وننتمى إلى فراعنة أو قرطاجيين أو طورانيين أو روم أو فرس أو غيرهم ممن قطع الإسلام أنسابنا بهم...

إن أبا بكر الصديق العربى وسلمان الفارسى وصهيبا الرومى وصلاح الدين الكردى ومحمد الفاتح التركى وسيف الدين قطز المملوكى .. إن هؤلاء هم أهلى وأرحامى وكيانى الحضارى أكثر ألف مرة من كل (الفراعنة) الذين حكموا أجدادى المصريين المساكين، وبنوا على أكتاف شعبى المصرى المقهور المجاهد مقابرهم الفخمة التى دفنوا فيها وسموها الأهرامات واعتبرت

من عجائب الدنيا.. وهى - كما سماها شوقى - (من بناء الظلم)..!!

* * *

إن الوعى بتاريخنا وحضارتنا الإسلامية هو الطريق لاستئناف الأمة الإسلامية لدورها القيادى.. أما التبعية - على غرار كمال أتاتورك وتلميذه أنور السادات ومن على شاكلتهما وهم كثيرون للأسف الشديد - فمن شأنها أن تحولنا إلى شعوب مستهلكة مدينة، وأن تحول بين أمتنا وأى استقلال أو إبداع، وأن تحفظ تخلفنا وتمزقنا على النحو الذى قدمته لنا صورة المسلمين والعرب فى الأحقاب الأخيرة التى ظنوا فيها أنهم تحرروا من الاستعمار ونالوا الاستقلال فوجدوا أنفسهم يعانون من ضياع ربما لم يحسوا بثقله على هذا النحو أيام كانوا تحت قبضة الاستعمارين السياسى والعسكرى فى القرنين الثالث عشر ومعظم الرابع عشر الهجرى.

* * *

وفى هذا الكتاب نطرح هذه القضية الخطيرة.. قضية (فقه التاريخ) من وجهة نظر إسلامية تقود إلى (الوعى بالذات) وتأصيل هذه الذات بحيث نطرد عنها كل التفسيرات التى تقود إلى عناصر دخيلة مسقطة على تاريخنا -(وذاتنا) من الشرق أو الغرب..

ونحن نحمد الله على أن العقل الإسلامى -على الرغم من كل ما يؤخذ عليه- قد تقدم خطوات كبيرة فى وعيه بحضارته وفقهه بتاريخه.. وقد ظهرت فى هذا السبيل نماذج متعددة وقفنا عند بعضها لتأريخ هذا التطور فى النظرة إلى التاريخ،

وهو التطور الذى نأمل أن يضطرد حتى يكون لإطارنا التاريخى وتجربتنا الحضارية الإسهام الفعال- والمؤثر بقسماته ومعالمه- فى مسيرتنا الحضارية نحو المستقبل الذى يمشى بجناحين معا: الأصالة.. والتحديث..

وعلى الله قصد السبيل ومنه وحده السداد والتوفيق.

أ.د عبد الحليم عويس

القاهرة الإسلامية

الفصـــــل
الأول

البحث التاريخى فى ضوء الرؤية الإسلامية
«مع دراسة نماذج معاصرة»

تتميز الحضارة الإسلامية بانطلاقها من ركائز ثابتة محددة، قد يقترب منها المسلمون -في بعض العصور- فيمثلونها خير تمثيل، وقد يبتعدون عنها فيصبحون ممثلين لها تمثيلا نسبياً.

وقد احتل التاريخ منذ ظهرت هذه الحضارة على الأرض مكانة أساسية في أصول هذه الحضارة ... وإن القرآن الكريم - وهو المصدر الإسلامي الأول - ليحفل بمئات الآيات التي تعالج قضايا التاريخ، وتستخلص منها القيم الإنسانية والتوجيهات الحضارية التي تفيدها رحلة الأمم السابقة في مراحل قوتها وضعفها ...

والحقيقة أننا مضطرون لأن نسجل أن المسلمين -في رحلة حضارتهم - قد وفقوا في الانطلاق من القرآن الكريم - مصدرهم الأول - في علوم كثيرة أطلقوا عليها اسم (علوم القرآن) .. كما أنهم قد اعتمدوا على القران وانطلقوا منه في علوم أخرى كعلوم اللغة العربية ... بيد أنهم - مع هذا الخط البياني المتقدم جدا -- في علوم القرآن واللغة بالنسبة لعصورهم - لم يكن خطهم البياني مساوياً أو قريباً من خط العلوم السابقة فيما يتصل بفقههم لعلوم تفسير الحياة والتاريخ...

وحتى مع ظهور بعض الومضات المتألقة لدى مفكر عظيم كأبي محمد علي بن حزم (٤٥٦هـ) في كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل) ومفكر عملاق مثل أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٧٢٨هـ) .. وأخيرا لدى أكبر العلماء على الإطلاق في فقه التاريخ قبل العصر

الحديث مؤرخنا العبقرى عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ)...

حتى مع ظهور هذه الومضات وغيرها فإن الخط البيانى فى فقه المسلمين للحياة والتاريخ بقى متخلفا لايتساوق إطلاقاً مع التكثيف القرآنى لقصص الأمم البائدة، ولا ينسجم مع هذه المساحة التى أعطاها القرآن لرحلة الصراع بين الحق ويمثله (الأنبياء)، وبين الباطل ويمثله (أعداء الأنبياء) المحافظون على سيطرة الكفر والفساد، والواقفون ضد العدل والحرية الإيمان.

ولقد انشغل المسلمون بدلا من البحث فى فقه التاريخ - بعلوم كلامية وافتراضات خيالية وصراعات مع أشباح ماضية لم يعد لها وجود ... وحتى اللغة - وليست العقيدة أو الفقه فحسب - دخلها من هذا الترف العقلى ما أفسد رواءها وعقد بساطتها وشوه جمالها .. فكان هذا الامتداد الجدلى على حساب فقه التاريخ والحياة.. وبالتالى ضاعت ومضة ابن خلدون - كما ضاعت الومضات الأخرى - فلم يكد يظهر فقه موضوعى للتاريخ يعتمد منهجية علمية دقيقة إلا فى العصر الحديث عندما بدأ المسلمون يفيقون إلى موقفهم فى الحضارة بعد غفلة طالت...

ويعتبر العلامة المهندس (مالك بن نبى) -من وجهة نظرى - أبرز معلم وضىء فى هذا المنعطف الجديد الذى يمثل الطريق الصحيح لفقه هذا الركن الأساسى فى القرآن الكريم ، وهو فقه الحياة والتاريخ على ضوء التصور الإسلامى الصحيح.

المسلمون والتاريخ فى العصر الحديث :

مما لاشك فيه أن الضمير الإسلامى قد عانى الكثير وهو يجد رقعة العالم الإسلامى فى العصر الحديث تكاد تظللها بالسواد جيوش الاستعمار الصليبى والأوربى .. وما فشل فيه صليبيو (بطرس الناسك) -

بعد جهد - نجح فيه - صليبيو المدفع والدبابة والمطبعة - دون جهد - ولقد أدرك المسلمون أن المعركة الجديدة ليست كالمعارك السابقة ... لقد كانت الحضارة فى جانبهم فى كل المعارك السابقة ...أما فى هذه المعركة فقد كانت الحضارة لدى الطرف الآخر... لقد انهزم المسلمون عبر تاريخهم فى معارك عسكرية كثيرة - شأنهم شأن كل البشر - لكن الهزيمة فى لقائهم الأخير مع الحضارة الأوربية كانت مصحوبة بمرارة خاصة، إذ إنهم أدركوا أن ثمة تحولا جديدا ظهر فى التاريخ ، وأن الأمر ليس أمر هزيمة عسكرية ... فحتى لو أخرجوا عدوهم وانتصروا عليه عسكريا فإن التحدى يبقى أكبر من ذلك (١) .. وكان هذا هو «القلق» الذى أصاب الوجدان أو الضمير الإسلامى الواعى ... على الرغم من وجود دجالين حاولوا الضحك على شعوبهم وعلى التاريخ ، وصوروا الأمر على أنه معركة عسكرية.. وأن الانتصار فيها وتحقيق الاستقلال العسكرى هو أهم شئ .. مع أن هذا الانتصار - أو الاستقلال - لايعدو أن يكون عند أحسن الفروض - جزءاً من أجزاء صراع حضارى معقد .

وقد تساءل الضمير الإسلامى - وكان من واجبه أن يتساءل حول تلك الأسباب التى وصلت به إلى هذا المنحدر ؟ وكيف استطاعت الحضارة الأوربية - فى غفلة منه - أن تصل إلى ما وصلت إليه؟ وبالتالى : ما العوامل التى أغفلها والطرق التى أهملها حتى اتسعت الشقة بينه وبين خصومه الحضاريين؟ - وقد تصدى للإجابة على هذه

(١) إذا كانت وسائل المسلمين فى عصر الرسول وخلفائه الراشدين أقل من وسائل أعدائهم، فقد كان لدى المسلمين شعور بالتفوق الحضارى والفكرى والسلوكى. (وهذا هو المهم).

الأسئلة كثيرون مخلصون - ودعنا من غير المخلصين الذين سرقتهم الحضارة الأوربية أو ذابوا فيها فهؤلاء لا يهمنا أمرهم ، لكن هؤلاء المخلصين - مع ذلك - انقسموا فى إجاباتهم إلى فريقين:

فريق رافض للحضارة الأوربية بالجملة... يشجبها كلها ولا يرى فيها خيرا، دون أن تكون لديه رؤية إبداعية نقدية تعرف حدود الأخذ والرفض الحضاريين ، وتعرف ما يؤخذ لينمى وما يؤخذ ليقتل، وتعرف الفرق بين التكنولوجيا وفلسفة التكنولوجيا وأهدافها ... وجل هذا الفريق لم يفهم حتى تلك الوسائل الإنسانية العامة .والتى اتكأت عليها أوروبا أيضا لكى تحرز تقدمها، ولم يحاول هذا الفريق - مع إخلاصه الشديد وسلوكه الشخصى الحميد غالبا - أن يتعب نفسه فى جدلية الحوار بين الحضارات ولا فى الفقه بالسنن الكونية، ولا فى محاولة جادة للقفز من فوق الجزئيات المتناثرة والرؤى الفرعية إلى الجمع والتركيب والرؤية الكونية والاجتماعية الشاملة.. وقد ساعد هؤلاء على عجزهم وقصورهم تخصصهم الحرفى فى بعض العلوم الجزئية الموسومة بالدينية ...فالفقيه يرى الحياة محصورة فى تلك الأحكام الفقهية المتناثرة دون أن يربط فقهه بالتطورات الاجتماعية والسنن التى تحكم المجتمعات ، والمحدث محصور فى دائرة الجرح والتعديل ... والمفسر - كمؤرخ الحوليات - يشرح (بضم الياء وكسر الراء وتشديدها) الآية تشريحا جزئيا[١] دون أن يقف كثيرا

---

(١) على استحياء بدأ التفسير الموضوعى للقرآن يظهر فى أعمال أساتذتنا الشيخ محمد عبد الله دراز فى كتابه (النبأ العظيم)، والشيخ محمود شلتوت فى تفسيره، والشهيد سيد قطب فى ظلاله، والشيخ محمد الغزالى فى خطراته ومحاوره وتفسيره.

عند استخلاص القوانين والسنن من خلال الآيات التى تمثل شرائح حضارية متناظرة.

وحتى تلك الآيات القرآنية المتعلقة بالأمم السابقة وبالسنن الكونية عولجت - والأحاديث مثلها - بالمنهج نفسه.. -وهذا هو الفريق الأول ، وهو ينتظم أكثر العاملين فى الحقل الإسلامى والفكرى ، وأعضاء هذا الفريق قدموا للأمة خدمة عظمى لاتنكر، فهم نقلة جيدون للعلوم الإسلامية، وهم حفظة لها، لكن دورهم يحتاج إلى تطوير حتى يحقق هدفيه الرئيسيين : وهما الاجتهاد المستمر لمواجهة التحديات، وإيجاد البديل والفاعلية الاجتماعية والحضارية الشاملة.

وأما الفريق الثانى من المخلصين فهم تلك القلة المبدعة التى تحمل هم الحضارة الإسلامية على كاهلها ، وبالرغم من تخصصها فى فرع من الفروع ، فهى تمد الطرف إلى الأمة الإسلامية عبر الزمان والمكان، وترى أنه لابد من استئناف دورها فى التاريخ، وأن ذلك لن يتحقق إلا بالإجابة الواعية الصحيحة عن التساؤلات المقلقة للوجدان الإسلامى، وصولا إلى وضع القطار فوق القضبان الصحيحة ... فلا يمكن مهما نبغ النابغون فى بعض العلوم والجزئيات - أن تقوم حضارة إلا إذا كان ثمة فقه صحيح بالسنن الاجتماعية والكونية ، وكانت هناك رؤية شاملة وغايات عليا .. ولن تستطيع المعارف المتناثرة وحدها أن تؤدى دورها إلا إذا توافرت لها شروط التوظيف الحضارى المؤدية للفاعلية والبناء... ومن هذه الشروط:

١ - أن تفهم الجماعة الإسلامية نفسها وموقعها فى الحضارة ومسئوليتها نحو التاريخ والبشرية...

٢ - أن تفقه الجماعة - أو الأمة - دينها وطبيعته الامتدادية

والحضارية.

٣ - أن يربط التخصص بالغايات الإسلامية العليا، وأن تكون مسئولية الأمة نحو التاريخ والحضارة الإنسانيتين مغروسة فى وجدان كل باحث وعامل وعالم، فقيها كان أو طبيبا أو مهندسا أو مزارعا أو مفسرا أو محدثا أو تاجرا.

٤ - أن تزول الحواجز القائمة بين العلوم المسماة بالدينية أو المعاشية، فكل ما ينفع هو دين ودنيا وكل ما يضر هو عبء على الدنيا والدين، وباستثناء الحد الأدنى من الدين فكل العلوم فرض عين إذا تحددت بأشخاص، وفرض كفاية على مجموع الأمة.

٥ - أن يعود المسلمون إلى الارتباط بالسنن الكونية، وفقه قوانين الحضارة، وتعميق رؤيتهم للتجارب التاريخية التى سردها القرآن، وللتجربة النموذجية التى قدمها الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولتجربتهم الحضارية خلال أربعة عشر قرنا فى التاريخ، ولتجارب الأمم من حولهم، ويؤمنوا -بلا ريب- أنهم لن يستطيعوا القفز فوق السنن الإلهية، ولن يقودوا الحضارة إلا بمؤهلات القيادة، وفى ظل مناخ يجب أن يسعوا لتهيئته وتوفير شروطه.

ومن هذه المنطلقات هب الفريق الثانى من المخلصين المسلمين يسعى إلى إعادة بناء التصور الإسلامى -كما جاء فى الإسلام - ويسعى لإقامة أبنية فكرية ذات مضامين قادرة على تكوين رؤية صحيحة لدى المسلم تجاه الحضارة والتاريخ وما يتصل بهما من قضايا التقدم والتأخر وعوامل النهوض وعوامل السقوط...

الاتجاه الإسلامى المعاصر فى التاريخ:

ذكرنا أن الاتجاه الإسلامى النقدى الشمولى للتاريخ لم يظهر فى

الكتابات الحديثة إلا فى مواجهة تلك الأزمة الحضارية التى أحس بها الإنسان المسلم عندما التقى بخيوله ورماحه ووسائله البدائية مع مدافع أوربا ومطابعها، وواجه سيطرتها- بسهولة- على خريطة العالم الإسلامى.

ومن هنا فقد اتجه البحث لدى كل مخلص - مؤرخاً كان أو عالماً طبيعياً أو فقيها - للبحث عن أسباب تأخر المسلمين وأسباب تقدم أوربا...

ومن الوقوف عند هذا السؤال - بل تحت هذا العنوان نفسه - ظهرت مجموعة من الكتب والدراسات...

وبالإضافة إلى هذه البحوث التى اتجهت اتجاها مباشراً لمعالجة القضية وجد اهتمام لدى كثير من الباحثين بحيث وجدنا آراءهم وتحليلاتهم - من كتاباتهم المختلفة - تعالج هذا الجانب بطريقة أو بأخرى.

إن القضية لم تقف عند (منظر) يجعل القضية همه الأكبر مثل (مالك بن نبى) أو عند تلامذته المتأثرين به تأثرا مباشرا والمنتشرين على امتداد الساحة العربية، ومنهم الدكتور عمار طالبى (جزائرى) والأستاذ عبد الوهاب حمودة (جزائرى) والدكتور محمود محمد سفر (سعودى) والدكتور عماد الدين خليل (عراقى) والدكتور جودت سعيد وجماعة (ندوة مالك بن نبى) فى لبنان وسوريا وعلى رأسها الأستاذ عمر مسقاوى.

بل إنها رشحت فى كتابات كثيرين من أمثال شكيب أرسلان، ومحمد إقبال، وجمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، والمفكر المسلم إيتين دينيه، ومحمد أسد (ليو بولدفايس) وعبد الرحمن الكواكبى وأبى الأعلى المودودى، والشهيد سيد قطب، والمفكر الهندى محمد تقى

الأمينى، والعلامة أبى الحسن الندوى، والداعية الشيخ محمد الغزالى، والدكتور محمد سعيد رمضان البوطى، والأستاذ أنور الجندى ... والأستاذ محمد جلال كشك ... وغيرهم.

لقد بدأ اتجاه جديد يشق طريقه فى الكتابة التاريخية فى مواجهة الأزمة الحضارية التى تعيشها الأمة، والتحديات التى تواجهها.

المعالم الحضارية فى هذا الاتجاه :

هذا الاتجاه بإجمال يؤمن بأهمية دور الأمة الإسلامية ويؤمن بقدرتها على العطاء واستئناف دورها فى التاريخ، وهو يثق فى أصول هذه الحضارة، ويتجاوز مرحلة الانبهار والتلفيق، ولا يرى فى الحضارة الأوربية الشوط الأخير فى رحلة الحضارة، بل يرى أن فى هذه الحضارة صنوفا قاتلة من الخلل، وإن كان لايؤمن بالتزام السكونية أو القدرية أو الحتمية، حتى تتداعى آليا هذه الحضارة... لأنه مطالب بالبديل وبالعمل، ليس لإسقاط الحضارة الغربية - فهذه ليست قضيته، بل لتقديم حضارة بديلة تتناغم مع الصياغة الإسلامية للحياة ...

ويرى هذا الاتجاه أن ضعف المسلمين وتفرقهم هما أكبر خدمة يقدمها المسلمون لأعدائهم، وأن كل صور الغزو الخارجية -السياسية والاقتصادية والعسكرية- مرجعها إلى خلل فى البناء الداخلى للأمة الإسلامية نشأ من الانفصام النكد الذى وقع بين حياة المسلمين وبين شريعتهم وأصولهم الحضارية.

ويفرق هذا الاتجاه بين مصطلحى (التحديث) الذى هو امتلاك كل الأساليب الصحية النافعة لدى الخصم الحضارى، وبين (التغريب) الذى هو استسلام للغرب... فالتحديث علاقة تفاعل بين حضارتين، والتغريب تبعية المغلوب للغالب.

ويرى هذا الفريق أن (الحضارة تحد) ولا يمكن أن تستورد الحضارة أو تشترى، فهى معاناة ورقى متدرجان، وليست الحضارة هى الآلات أو المنجزات المادية، بل الحضارة مركب مكون من العقيدة والفكر والإنسان والتراب والوقت ... وحصاد هذا المركب من نظم ومناهج وماديات هو ثمرة الحضارة ... فالسبب فى الإبداع الحضارى هو (المركب)، وأما (الحصاد) أو المخترعات فهى النتيجة والثمرة.

ولا يجوز أن تتقدم النتيجة على السبب .. أو أن يقفز إلى النتيجة دون أسبابها أو مؤهلاتها.

ويرى الاتجاه الإسلامى - أيضا - أن ثمة (حتمية) فى التاريخ هى (السنن الكونية الإلهية) لكن هذه الحتمية لاتشل حركة الإنسان الفرد، ولا تكبل حركة الأمة إن هى قررت السير فى طريق الحضارة، فالقدرية الاستسلامية لاتحسب على هذا الاتجاه الإيجابى الحركى، وإنما تحسب على الانعزاليين السكونيين من أصحاب النزعات الوجدانية والباطنية، كما أن هذه الحتمية ليست من باب الحتمية الماركسية التى تجعل التاريخ كتلة لا واعية تتحرك قدما بطريقة آلية، وليس لإرادة الفرد أو الأمة دور فيها...

ويرفض هذا الاتجاه الدورة الطبيعية للحضارة التى يقول بها العلامة ابن خلدون، فابن خلدون كان يعالج الدول - لا الحضارات - فى نظريته ... ونظريته ذات صلة وثيقة بالحتمية التى يرفضها النظر الإسلامى .. والحضارة الإسلامية قادرة على الإفلات من حصار الموت، وعلى البروز فى مواقع أخرى أكثر قدرة على حمل رايتها والتعبير عن فطرتها وأدق مبادئها، لأنها (الحق) الذى يجب أن يبقى فى مواجهة (الباطل).

ويرى هذا الاتجاه أن خط الأنبياء والمرسلين هو خط الحق والإسلام فى التاريخ كله، والقوى المحاربة لهم هى خط الباطل ... ولا صراع فى الحياة إلا بين الحق والباطل.. وأما القوى الأخرى فبينها تعاون وتكامل واستثارة وليس صراعا... لاصراع بين الطبقات ولابين الملاك والعمال، ولابين الرجال والنساء، ولا بين الأجيال، ولا بين الفرد والمجتمع ... ولا بين الانسان والطبيعة... بل هو تكامل حتمى، حتى ولو لبس ثوب استثارة وتنافس مشروعين... فهوصراع واحد بين قوى الخير والشر فى الكون و الحياة... ويجب أن ينظر إلى التاريخ من هذا المنظور وحده .. وكيف يكون صراعاً .. ولا غنى للمالك عن العامل أو العكس، ولا للرجل عن المرأة أو العكس، ولا للإنسان عن الطبيعة أو العكس .. وهكذا..

إن هذا الصراع الحاقد العنيف لايؤمن به النظر الإسلامى لحركة التاريخ، وليس من منهجه فى شئ..

* * *

ويؤمن النظر الإسلامى للتاريخ بدور القيادة والبطولة والأقلية المبدعة؛ إذ ليس فى الإمكان أن يكون كل الناس عمر بن الخطاب أو صلاح الدين الأيوبى، وفى الوقت نفسه لن تستطيع الجموع أن تسير فى طريقها الصحيح إلا بالقيادة الواعية المفكرة المبدعة، وهل يمكن أن يكون تاريخنا متألقا وعظيما دون نجومه المعروفة من أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وخالد وسعد بن أبى وقاص وأبى عبيدة والقعقاع وعمرو بن العاص وعقبة بن نافع وعشرات غيرهم، وإذا وسد الأمر إلى غير أهله من الرعاع والغوغاء فالمصير هو التردى والهزيمة... كما أن الأقلية المبدعة ليست أقلية انعزالية مستعلية، بل هى من الأمة وللأمة وقد صنعتها الأمة على عينها وبعرقها... وعليها – بالتالى – مسئولية

تجاهها... ومسئولية أمام الله الذى سيحاسبها على دورها الذى هيأها له ووفر لها وسائله.

والعرب مادة الإسلام ... وهم ملائكته وأروع أجناسه وأنقاها إذا حملوا رايته بإخلاص، لكنهم أحط الأجناس الإسلامية عندما يخونون هذا الدين ويتنكرون له... فهم إما ملائكة بالإسلام وإما جنس منحط غرائزى بغير الإسلام... ولا طريق لهم فى التاريخ إلا هذا أو ذاك.

بل لقد استطاع الإسلام أن يزيل العرب من الحكم عندما سيطرت عليهم مفاهيم العصبية القبلية بدلا من مفهوم المساواة الإسلامى، وإن كان الإسلام قد أحدث حركة استعراب ضخمة، لمختلف المناطق التى وصل إليها حملة الإسلام، ولئن كان الإسلام لايلزم أحدا باعتناقه فقد تعربت جماعات كثيرة دون أن تصبح مسلمة، وساهمت بدور واضح فى مجال الفكر العربى الإسلامى جنبا إلى جنب مع المسلمين(١).

ولم ينتشر الإسلام بذاته .. بل انتشر بسواعد مخلصة وقلوب نقية وعقول ذكية وهمم عالية... فالتاريخ الإسلامى صنعه رجال فاعلون، ولم يصنعه سكونيون هامدون خرافيون... وقد عانى صانعو هذا التاريخ مثلما يعانى كل البشر وزلزلوا زلزالا شديدا وصبروا على ما امتحنوا به، وكانت العاقبة -بعد الابتلاء والاختبار- للمتقين... وحضارة الإسلام حضارة دعوة حملها التجار والعباد والزهاد، وليس العنف سبيل الإسلام إلا عندما توصد كل الأبواب...

وفى عهد عمر بن عبد العزيز الذى لايزيد على عامين إلا قليلا دخل فى دين الله أضعاف الذين دخلوا بالمعارك فى عشرات السنين.

ولدورة التاريخ الإسلامى منظومة خاصة لاعلاقة لها بالمنظومة

---

(١) أنور الجندى : الإسلام وحركة التاريخ ص ٤٤١ طبع مصر.

الأوربية، ولا يجوز أن تقاس عليها... فبينما كان التاريخ الأوربى يمر بأسوأ فتراته بعد ضياع حضارتيه: اليونانية والرومانية كان التاريخ الإسلامى يبدو فى أفق الإنسانية وكأنه شمس متألقة يوشك ضوؤها أن يعم الكون كله...

إن الفترة الواقعة بين سنتى:- (١ -١٣٢ للهجرة) - وهو تاريخ سقوط بنى أمية- أو حسب رأى بعضهم - من السنة: (١ - إلى - ١١٤ للهجرة) وهو تاريخ هزيمة المسلمين فى موقعة بلاط الشهداء (بواتيه) - تعتبر عصر الفتح الإسلامى الحضارى الذى امتد إلى أكبر مدى إشعاعى فى تاريخ الإسلام ... فمن حدود الصين إلى أعماق بلاد الغال (فرنسا) ارتفع مؤذن الإسلام بشعاره الخالد (الله أكبر) وارثاً للتراث الحضارى الرومانى، ومقدماً نموذجاً حضارياً لم تعرفه البشرية من قبل، أكبر خصائصه أنه يمزج بين العلم والدين والوحى والعقل فى نسيج واحد متكامل غير متنافر...

فى هذا التاريخ نفسه (٦٢٢ -٧٣٢ للميلاد) كان قاموس أوربا لايعرف ما يسمى بالفكر أو العقل أو البحث العلمى، بعد أن قضت الكنيسة على كل ومضات العقل السابقة، وجعلتها «هرطقة» يرمى مرتكبها بالزندقة ويستحق القتل... وصادرت العقل البشرى لحساب الوحى المغلوط...

وأن الفترة الواقعة بين سنتى (١٣٢ - ٤٨٩هـ) وهو التاريخ الذى يفصل بين سقوط الأمويين وبداية الحملات الصليبية على المشرق ... وأيضا قبيله بقليل سقوط طليطلة فى الأندلس ...

هذه الفترة على ما بها من تفكك سياسى نسبى وظهور عدد من الدويلات المستقلة عن دولة الخلافة العباسية، كالأدارسة فى المغرب

الأقصى، والرستميين فى المغرب الأوسط والمدراريين فى سجلماسة، والطاهريين فى خراسان والطولونيين فى مصر والأمويين فى الأندلس ... ثم حركة الانشقاق الفكرى والروحى والسياسى المتمثلة فى الفاطميين فى المغرب ومصر ... هذه الفترة مع هذه السلبيات كانت فترة ازدهار فكرى وحضارى وتنوع فى الإيقاعات ونشر للعربية والإسلام بالعقل والكلمة والأخلاق، وظهور لمدارس الفكر الإسلامى... وبينما كانت مكتبة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الثالث (٣٥٠ - ٣٦٦هـ) تضم نحو أربعمائة ألف مجلد كانت أكبر مكتبة فى أوربا تضم ١٩٢ كتاباً...، وبينما كان المسلم يتوضأ خمس مرات ويغتسل كل أسبوع عبادة لربه... كان الأوربى الناسك يتباهى بأن جسده لم يمسسه الماء منذ عدد من السنين!!

هكذا كنا... وهكذا كانت أوربا لخمسة قرون... بل لعشرة قرون فى الحقيقة... فكيف تكون دورتنا الحضارية خاضعة للدورة الأوربية... ولهذا كان بدهيا أن يؤمن الفكر الإسلامى المعاصر بأن دورة حضارته (منظومة خاصة) تتناقض مع الدورة الأوربية فى عصرها الوسيط الذى امتد من القرن السادس وحتى القرن السادس عشر للميلاد.

وبإيجاز ... تلك بعض مرئيات الاتجاه الإسلامى المعاصر نحو التاريخ وهى بعض البذور فى طريق تكوين تفسير إسلامى أصيل للتاريخ والحضارة.

الحصـــاد والتقـويـــم

أ - تطور فى الرؤية والتنظير :-

فى البداية، وقبل مرحلة التنظير للمعضلة الحضارية بمنهجية علمية تستفيد من تطور فلسفة التاريخ فى العالم ، كانت الدراسات تتجه

مباشرة للإجابة على التساؤلات الخاصة بسر تخلف الأمة الإسلامية وتقدم أوربا.

وحتى كتاب الأستاذ أنور الجندى الذى أصدر طبعته الأولى سنة ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م) تحت عنوان (الإسلام وحركة التاريخ - رؤية جديدة فى فلسفة تاريخ الإسلام) حتى هذا الكتاب الذى يعتبر متأخرا فى صدوره، ومع أن مؤلفه الكريم جال بنا عبر تاريخنا الإسلامى جولة طيبة إلا أنه قد اتجه إلى هذه الطريقة المباشرة عن (عوامل التأخر ودوافع التقدم) دون أن يقدم الإطار التفسيرى التاريخى لهذه العوامل وتلك الدوافع، على النحو الذى نراه - مثلا - عند مالك بن نبى أو عماد الدين خليل أو محمد جلال كشك أو محمود محمد سفر...

ويلخص الأستاذ أنور الجندى رأيه حول عوامل التحلل والضعف فى عالم الإسلام فى ثمانى نقاط هى:

١ - الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرئاسة والجاه.

٢ - الخلافات الدينية والمذهبية والانصراف عن روح الدين.

٣ - الانغماس فى ألوان الترف والنعيم والإقبال على المتعة والشهوات.

٤ - انتقال السلطة والرئاسة إلى غير العرب من الفرس تارة والمماليك والأتراك وغيرهم.

٥ - إهمال العلوم العلمية والمعارف الكونية وصرف الأوقات وتضييع الجهد فى فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة.

٦ - الانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم والاندفاع فى تقليدهم.

٧ - الغرور بسلطانهم والانخداع بقوتهم وإهمال النظر فى التطور

الاجتماعى للأمم.

٨ - الدعايات الاستعمارية التبشيرية(١).

ومع تقديرنا لهذه المستخلصات الطيبة إلا أن الوصول إليها كان يجب أن يوضع فى إطار من التحليل العلمى المتكئ على رؤية عميقة للتاريخ.

وقد كان المجاهدان الكبيران عبد الرحمن الكواكبى وشكيب أرسلان أسبق فى الوقوف عند هذه النقطة، وقد قدما فيها عدداً من المقترحات والأراء التى تلتقى بنسبة كبيرة مع ما قدمه الأستاذ الجندى...

فقد رأى الكواكبى أن عوامل ضعف المسلمين هى جهلهم ولا سيما الأمراء منهم، وظهور الحكومات المستبدة وحرمان الشعوب من الحرية وتعطيل شريعة الله وإهمال الدين وانحلال رابطته وتشويهه بواسطة العلماء المدلسين والمؤولين والاقتصار على العلوم الدينية وإهمال العلوم الطبيعية والرياضية، والفقر، وتكبر الأمراء وميلهم إلى المنافقين وعلماء السوء(٢).

أما العلامة شكيب أرسلان فقد رأى أن أهم عوامل تأخر المسلمين هى:

ترك المسلمين عزائم القرآن التى قام بها سلفهم، وإعراض علماء المسلمين عن العلوم الطبيعية وفقدهم أعظم قوة مادية، والاكتفاء من الدين بالرسوم الظاهرة واللهو بالقشور عن اللباب، واليأس من رحمة الله وفقدان الثقة فى النفس واستخذاء المسلمين أمام الأوربيين وفقد أكثرهم عزة الإسلام القومية، ومواطأة المسلمين الأوربيين على إخوانهم

(١) أنور الجندى / الإسلام وحركة التاريخ ص ٤٧٩،طبع بمصر.

(٢) طبائع الاستبداد.

وخدمتهم إياهم، وفقد روح التضحية التى سادت بها الأمم الأوربية، وعدم اقتداء المسلمين بالأوربيين فى تأليف الجمعيات والشركات، وفساد الأخلاق عامة وأخلاق الأمراء خاصة، وفساد العلماء الذين هم القوة المراقبة للحكومات، وتفوق الأوربيين فى العدة وطمعهم فى مجاورتهم لجميع بلاد الإسلام وثباتهم وصبرهم وسيرهم على خطط مرسومة يتبعونها منذ مئات السنين ويخيم الجهل على الأمم الإسلامية، وعدم تجدد برامج التعليم، واستيلاء الجمود على الفقهاء، وكثرة الكلام عن الآخرة ـ مع أن الإسلام دين دنيا وآخرة ـ، والدعايات الاستعمارية التبشيرية(١).

بيد أن تطور العقل المسلم فى التنظير للمعضلة الحضارية قد مكنه من تقديم تصور لعملية التطور الحضارى بطريقة منهجية وشمولية .. فليس الأمر فى البناء الحضارى مجرد تقديم اقتراحات أو علاج بعض الأمراض ... فالقضية تتصل بالكيان الحضارى كله وبروحه الهامدة وبإرادته الخامدة ... وعلاج الروح عمل معقد يحتاج إلى توجيه فكرى ونفسى وجمالى وإلى إعادة ارتباط المسلم بالسنن الكونية من خلال عقيدة حضارية قادرة ... حتى يعرف المسلم موقعه فى الكون ورسالته نحو الإنسانية.

وفى هذا الإطار كان لمالك بن نبى - على المستوى التنظيرى - فضل كبير ، وكان للمجاهدين من أمثال الشهيد حسن البنا وتلاميذه وعلى رأسهم الشيخ محمد الغزالى والشهيد سيد قطب والدكتور يوسف القرضاوى وغيرهم من أمثال العلامة أبى الأعلى المودودى ، والعلامة أبى الحسن الندوى وتلامذتهما ... والإمام عبد الحميد بن باديس وجمعية العلماء وغيرهم -على المستوى التطبيقى- فضل كبير أيضاً.

(١) أنظر أنور الجندى : الإسلام وحركة التاريخ ص ٤٨١

ومن خلال هذا النمو النظرى والعملى بدأت الكتابة التاريخية من منظور إسلامى تصل إلى مرحلة طيبة من الرشد... فبالإضافة إلى سلسلة مالك بن نبى (مشكلات الحضارة) والتى تضم (شروط النهضة، وآفاق جزائرية، وفى مهب المعركة، والمسلم فى عالم الاقتصاد والظاهرة القرآنية) وغيرها... بدأت تظهر كتابات الدكتور محمد سعيد رمضان البوطى فى منهج الحضارة الإنسانية وحوار حول مشكلات حضارية، وكتابات الدكتور عماد الدين خليل حول (التفسير الإسلامى للتاريخ) وكتابات الأستاذ محمد جلال كشك حول (الغزو الفكرى، والقومية والغزو الفكرى، والماركسية والغزو الفكرى، ودخلت الخيل الأزهر) وغيرها، كما ظهرت دراسات الدكتور محمود محمد سفر تحت عناوين: (الحضارة تتحد، وإنتاجية مجتمع، والإعلام موقف، والتنمية قضية) وغيرها... وظهرت بحوث الدكتور عون الشريف قاسم حول (قضايا البعث الحضارى) وظهر بحث الدكتور عثمان موافى بعنوان (منهج النقد التاريخى الإسلامى والمنهج الأوربى) وبحوث الدكتور محمد فؤاد حجازى حول (البناء الإجتماعى، والتغيير الإجتماعى) وبحوث العلامة الدكتور عمر فروخ فى التاريخ الإسلامى وتفسير التاريخ ... وبحوث الأستاذ جودت سعيد تحت عناوين (حتى يغيروا ما بأنفسهم، وفقدان التوازن الاجتماعى، والإنسان عندما يكون كلا وحين يكون عدلا) ...وبحوث كاتب هذه السطور حول (تفسير التاريخ)...كعلم إسلامى و(دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية) ...

وهكذا - وبدون استطراد كبير لايتسع له المقام - بدأ العقل المسلم يقتحم عالم السنن التاريخية والاجتماعية، حتى يكتشف من خلال

تعرفه عليها التفسير الصحيح للأزمة الحضارية التى تمر بها أمته، والطريق لعبور هذه الأزمة، وكان هذا - فى حد ذاته - خطوة طيبة للقفز بالمنهج التاريخى ودفعه ليلتحم بفلسفة التاريخ التى هى جزء لايتجزأ من المنهج التاريخى السليم.

ولم يقف الإنجاز - فى النظرة الإسلامية للتاريخ - عند هذا الأفق - مع سموه - بل إن ثمة إنجازات تمت على مستوى الكتابة التاريخية المباشرة...

لقد تهاوت فى العقل المسلم كل محاولات الانتقاص من شخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ومن خلفائه الراشدين، وأكدت مئات البحوث الإسلامية وغير الإسلامية أن محمدا هو الأول فى التاريخ، وأن كل ما ظن أنه شهادة ضده هو شهادة له ... فحتى تعدد زوجاته كان شهادة له من تسع زوجات مطلعات منه على كل صغيرة وكبيرة - ويستحيل تواطؤهن على الكذب، وقد عاش بعضهن بعده نحو نصف قرن وحرمن من الرجال بسببه - ومع ذلك ظللن يعترفن بعظمته ويؤمن بنبوته ولم يتغير رأيهن فيه قط، مع أن كل العظماء - كما يقال - يفقدون عظمتهم فى بيوتهم مع الزوجة الواحدة ... إلا محمداً الذى بقى عظيماً مع تسع زوجات (١) !!

وقد ظفر العصر الراشدى بتقدير كبير وتألقت عظمة أبى بكر وعمر ... وحتى خلاف الصحابة فيما بينهم وصل النظر السليم إلى أنه خلاف فى سبيل الحق ... المصيب منهم والمخطئ كان يبحث عنه

---

(١) انظر بحثا فى هذه القضية بعنوان (شخصية الرسول أمام المقاييس الإنسانية) للكاتب (ألقى فى الندوة الثالثة لتاريخ الجزيرة بالرياض) وقد توسع فيه ونشر فى كتاب ضمن سلسلة ينابيع الثقافة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

.. وقد دعمت أبحاث العلامة محب الدين الخطيب والدكتور محمد الصادق عرجون هذا الاتجاه الحميد...

ولئن كان الصحابة بشرا على أعلى طراز من البشرية الزكية المخلصة – على الرغم من وجود خلافات اجتهادية بينهم – فإن النظرة إلى الدولة الأموية والعباسية – من باب أولى – يجب أن تكون منصفة، فنسجل لهم الإيجابيات، وتسجل السلبيات، وسوف نجد أن دولة بنى أمية – مع وجود أخطاء – قد قدمت خيراً كثيراً للإسلام، وكانت – بحق – دولة الفتوحات العظيمة – كما أن دولة بنى العباس قد نجحت فى استيعاب الانفتاح الحضارى، وأبرزت الألق الفكرى الإسلامى فى وجه التيارات الزاحفة من الحضارات المنهزمة... ووقفت فى وجه حركات شعوبية وإلحادية كثيرة ... وهذا لايعنى عدم وجود أخطاء فيها..!!

– وقد أنصف الأيوبيون أبطال حطين ...
– وأنصف المماليك أقطاب عين جالوت ...

– ووضعت أصول نظرة علمية للتاريخ العثمانى وفضله على المسلمين لقيامه فى وجه الغارة الصليبية التى كادت تبتلع المغرب والمشرق بعد قضائها على الأندلس لولا ظهور القوة العثمانية الإسلامية الفتية.

ومع كل العبث والتضليل الذى وقع فى التاريخ الحديث، فقد نجحت الرؤية الإسلامية للتاريخ فى كشف الحركات المعادية التى تلبس شعارات القومية والشعوبية والإلحادية والماسونية المستترة والتقدمية والوطنية، وكانت –وما زالت– عائقا دون وحدة العرب وتقدمهم.

وقد أبرز المنهج التاريخى الإسلامى الدور الأساسي فى تحرير الشعوب الإسلامية، ولا سيما فى الثورات التحريرية الكبرى كثورة الجزائر، ووقوف ليبيا ضد الاحتلال الإيطالى، ووقوف الأزهر ضد

الحملة الفرنسية وضد مظالم الولاة، وثورات أندونيسيا ومسلمى الهند، ودور الأزهر والزيتونة والقرويين والمعاهد الإسلامية فى بعث الوعى الإسلامى بعامة.

ب - تطور فى مناهج البحث

وقد بدأ تقويم شامل للمصادر التاريخية الإسلامية، فوجه النقد لمؤرخين كبار من أمثال المسعودى (المعتزلى) وابن طباطبا (الباطنى) واليعقوبى (الباطنى) وابن مسكويه (وكان تابعا لبنى بويه الباطنيين) وعبد الواحد المراكشى (ظلم المرابطين لحساب الموحدين) وناصر خسرو وابن حوقل (لاتجاههما الباطنى).

وقد بدأ تطبيق عملى فى الكتابة التاريخية لذلك المنهج - الذى كان يحلم به ابن خلدون - فأصبح التاريخ مصحوبا بلون من التفسير والنقد الداخلى والانسجام العقلى، وقد نقد المؤرخ المتحيز والمتملق والجاهل، ورفضت الثقة المطلقة فى الناقلين عن طريق الجرح والتعديل.

ومع التحام تفسير التاريخ بالعملية التاريخية البحتة ظهر تقدير المؤرخين لما سماه ابن خلدون (طبائع العمران) فميز الصدق من الكذب ... (فالقانون فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران، ونعرف ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه، وما يكون عارضاً لايعتد به، وما لايمكن أن يعرض له)(١).

ولا نستطيع - مع تقديرنا لتأثير ابن خلدون - أن ننكر أثر

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٣٣ طبع بيروت.

التيارات التاريخية الوافدة مثل كتابات أرنولد توينبى وأوزفالد شبنجلر وجوستاف لوبون ورينيه دوبووا وأليكسيس كاريل وإدوارد جيبون وغيرهم - على ما لديهم من أخطاء - كما لا نستطيع أن ننكر أثر الأفكار المضادة . مثل الأفكار الماركسية المادية الحتمية عن التاريخ عند كارل ماركس وجورجى بلنجانوف وأفكار فريدريخ هيجل المثالية.

ومع تطور المنهج نظر بعين الشك إلى الحشو المغلوط الذى يراد جعله تاريخاً، والمتمثل فى عدد من الموسوعات الأدبية مثل كتاب (الأغانى) لأبى الفرج الأصفهانى، ومثل قلائد العقيان ومطمح الأنفس للفتح بن خاقان والعقد الفريد لابن عبد ربه ... فهى مصادر يؤخذ منها ويترك وأكثرها منحول لا يصور حياتنا الإجتماعية.

وفى العصر الحديث ظهرت أدوار ساطع الحصرى، وجورجى زيدان وبقية مدرسة المستغربين كما كشفت مدرسة المستشرقين والمدرسة الماركسية، فى العبث بتاريخنا وتحريفه لخدمة الأغراض المحددة.

ويكاد ينتهى التطور فى المنهج التاريخى من وجهة نظر إسلامية إلى عدد من المسلمات التى تمثل إضافة جيدة، وأهمها:

١ - الارتباط بين العملين التاريخى والوثائقى والعمل التفسيرى الداخلى فى فقه التاريخ .

٢ - تقويم المصادر على أساس الإفادة من نهج المحدثين فى الجرح والتعديل واعتماد القرآن والسنة* (المصدرين الأساسيين) للتاريخ الإسلامى والتاريخ العام.

٣ - ضرورة أن يجمع المؤرخ بين وظائف ثلاث (مؤرخ ومحدث ومفسر) فى حدود الاستطاعة.

٤ - الشمولية فى النظر التاريخى بين شتى العوامل المؤثرة فى الحركة التاريخية من فكر واقتصاد وحياة اجتماعية وعقدية وسياسية وعسكرية، فليس بالسياسة وحدها تصنع الحياة، بل كان للعلماء والصناع والزراع والتجار دور أهم فى صناعة التيار الحضارى.

٥ - ضرورة توافر أدوات البحث التاريخى فى المؤرخ المسلم من عدالة وضبط وموضوعية وفقه باللغة والعلوم الإسلامية والجغرافيا الإسلامية عبر القرون، وعدم الحكم إلا من خلال علم مؤكد.

٦ - رصد الغايات العليا الإسلامية وتأثير مبادئ الإسلام فى التاريخ العالمى والحضارة الإنسانية.

٧ - إبراز تاريخ الأنبياء باعتباره تاريخ جبهة الحق وهداة القافلة البشرية.

٨ - النظر إلى التاريخ الإسلامى كله على أنه تاريخ كل مسلم، ورفض النظرة الشعوبية للتاريخ، فتاريخ الهند وأفغانستان والأندلس والمغرب ومصر والشام والجزيرة العربية وأندونيسيا وبقية أقطار العالم الإسلامى وحدة لاتتجزأ.

* * *

وبإيجاز ... لقد حقق الاتجاه الإسلامى تطوراً فى الرؤية، وفى المنهج، والتحم بآفاق الماضى وآفاق الحاضر، وقدم دراسات نقدية جيدة وأطروحات موفقة اتكأت على منهجية سليمة، بل كان الاتجاه الإسلامى أسبق فى التنظير الفلسفى للحركة التاريخية على مستوى العالم الإسلامى.

بيد أن الخطوات فى طريق كتابة شاملة للتاريخ الإسلامى بمنهج إسلامى رصين تمضى بطيئة وبجهود فردية، وما زال التاريخ الإسلامى

يتعرض لغارة شرسة من أعداء الإسلام وخصوم حضارته.

ولم يجد الاتجاه الإسلامى الإمكانات لكى يقدم موسوعات تدحض ذلك العرض السيئ الملئ بالسموم الذى تحفل به الموسوعات التاريخية الاستشراقية ودوائر المعارف الغربية والتفسيرات الماركسية لتاريخنا - فضلا عن أن بعض الكتابات التاريخية المخلصة تمتاز بالجمع التقليدى للوقائع، وبافتقادها إلى عنصر النقد العلمى وباعتمادها على العاطفة والأفكار الشائعة. ولعل المنهج التاريخى الإسلامى يتجاوز هذه الأخطاء التى يقع فيها بعض المحسوبين عليه فى وقت قريب بإذن الله.

* * *

وأياً كان الأمر - واقترابا من مجالات التطبيق التى تدخل بطريقة ما فى التقويم - نقدم بعض النماذج الأصيلة والرائدة فى ميدان البحث التاريخى القائم على الشمولية والتفسير واستخدام التاريخ كعنصر أصيل فى ذاتنا الحضارية .. وسوف يرد فى ثنايا عرضنا لهذه النماذج ما نأخذه عليها من سلبيات، وما تحفل به من إيجابيات .

* * *

تعتبر دراسة الدكتور عماد الدين خليل حول (التفسير الإسلامى للتاريخ) - بيقين - من أهم الدراسات المباشرة فى قضية (التفسير الإسلامى للتاريخ) وإن كان تفسيره محصوراً فى الرؤية القرانية لا يتعداها.

وفى البداية يبرز عماد الدين خليل معالم رؤيته فيقول: « إن ثمة حقيقة أساسية تبرز واضحة فى القرآن الكريم، تلك هى أن مساحة كبيرة فى سوره وآياته قد خصصت (للمسألة التاريخية) التى تأخذ أبعادا واتجاهات مختلفة وتتدرج بين العرض المباشر والسرد القصصى

(الواقعى) لتجارب عدد من الجماعات البشرية، وبين استخلاص يتميز بالتركيز والكثافة للسنن التاريخية التى تحكم حركة الجماعات عبر الزمان والمكان مروراً بمواقف الإنسان المتغيرة من الطبيعة والعالم، وبالصيغ الحضارية التى لا حصر لها والتى تتأرجح بين البساطة والنضج والتركيب، وتبلغ هذه المسألة حدا من (الثقل) و (الاتساع) فى القرآن الكريم بحيث إن جل سوره لاتكاد تخلو من عرض لواقعة تاريخية أو إشارة إلى حدث أو تأكيد على قانون أو سنة تتشكل بموجبها حركة التاريخ».

فالتفسير الإسلامى حقيقة إذن ... وهو ليس عملا مفتعلا أو رد فعل للتفسيرات التى ظهرت مثالية أو مادية ..وهو - أيضا ليس جريا لاهثا وراء قضية احتلت مكانها من الفكر المعاصر.

بل إن الدكتور عماد الدين خليل لايلبث أن يتحدث عن مأخذ خطير يأخذه على كثير من الباحثين وفلاسفة التاريخ المعاصرين الذين وقعوا فى خطأ القول :

بأن ابن خلدون هو أول من مارس هذا المنهج وأنه لا توجد قبل ابن خلدون أية محاولة لتفسير التاريخ . ومن عجب أن ابن خلدون نفسه وقع فى الخطأ ذاته عندما أكد فى مقدمته أنه لم يعثر على أية محاولة فى هذا المجال وكان أحرى به أن يبين ما يتضمنه القرآن من إشارات تدل على الطريق.

ومع هذا الاعتراف - بالسبق القرآنى فى هذا المجال - فإن الدكتور عماد الدين خليل قد وقع فيما وقع فيه ابن خلدون، وذلك حين صدر، التفسيرات الأخرى بما يوهم أنها أسبق أو أنها الأصل الذى يقاس عليه مع أن مكانها المنهجى - فى رأينا - أن تأتى متأخرة ولمجرد

المقارنة التى تكشف عناصر الاختلاف ومظاهر السيطرة والجزئية الشديدة المحدودة التى حفلت بها هذه التفسيرات والتى جعلتها أقل (مكانا) ومكانة عن «التفسير الإسلامى للتاريخ».

وفى هذا المنهج أيضاً نلحظ أمرا يظهر لأول وهلة، فإن المادة التى اتكأ عليها الدكتور عماد الدين تكاد تنحصر فى «القرآن الكريم» - كما ألمحنا - بحيث يبدو وكأنه لا وجود للسنة الشريفة، مع أن ثمة أحاديث نبوية كثيرة تحدثت عن قضايا تاريخية وكونية واستشرفت آفاق المستقبل البعيد مما هو ضرورى التناول عند المعالجة لموضوع «التفسير الإسلامى للتاريخ» فهل يا ترى ترك المؤلف (السنة) وتاريخ المسلمين بشقيه الصحيح والمنحرف عامداً لاعتبار رآه؟ وما هذا الاعتبار؟

وفى البداية - كذلك - يطالعنا الدكتور بحديث جيد ومركز عن الواقعية (التاريخية) من الوجهة القرآنية.

«وقد قدم لنا القرآن الكريم نماذج عديدة للمعطيات التاريخية وحدثنا عن الماضى فى جل مساحته، لكن ما يلبث أن يخرج بنا ببيان الحكمة من وراء هذه العروض، وإلى بلورة عدد من المبادئ الأساسية فى حركة التاريخ البشرى مستمدة من صميم التكوين الحدثى لهذه العروض، تلك المبادئ التى سماها (سنناً) ودعانا أكثر من مرة إلى تأملها واعتماد مدلولاتها فى أعمالنا الراهنة ونزوعنا المستقبلى».

وعلى امتداد الكتاب الكريم تترى العروض القرآنية مغطية مساحة زمنية تبدأ من آدم وتنتهى بالرسول محمد عليهما الصلاة والسلام.

بل إن بعض الايات القرآنية لتتجاوز الماضى والحاضر لكى تمد رؤيتها إلى المستقبل القريب أو البعيد فى تنبؤات تاريخية يحيط بها

علم الله تعالى المطلق بالصدق الكامل والضمانة النهائية.

ولم يغب عن القرآن الكريم أن يوضح الأسباب التى من أجلها تنزلت هذه العروض التاريخية والإيحاءات المستقبلية. إنها كلها لهدف إثارة الفكر البشرى ودفعه إلى التساؤل الدائم والبحث الدائب عن الحق وتقديم خلاصات التجارب البشرية وإزاحة ستار الغفلة والنسيان فى نفس الإنسان وتقديم البرهان على الحق الواحد الذى جاء به الأنبياء.

أما النتائج المرادة من هذه العروض فهى الانسجام عن وعى بالسنن والنواميس المتمخضة عن دراسة التاريخ البشرى والتمعن فى وقائعه وأحداثه، وفى القرآن الكريم لاتتحدد هذه النواميس ولاتأسر نفسها بتفاصيل وجزئيات موقوتة، بل تمتد مرنة منفتحة شاملة لكى تضم أكبر قدر من الوقائع وتلامس أكبر عدد من التفاصيل والجزئيات وتبقى - فى النهاية - الحصيلة النهائية والرموز المكثفة والدلالات الكبرى لحركة التاريخ.

إن هذا الركن من أركان بحث التفسير الإسلامى الثلاثة قد اعتمد بصورة مركزة وجيدة على القرآن الكريم فى مسألة (الواقعة التاريخية) بحيث نستطيع القول : إن المؤلف قد استعرض الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع استعراضاً شبه كامل وأنه أحسن استغلال النص وكان يتحرك من داخل النصوص بموضوعية ووعى جعلت خطى النص والتحليل يسيران فى تآزر دون أن يطغى أحدهما على الآخر.

ومن خلال هذا التتبع القرآنى لمسيرة (الواقعة التاريخية) تكشفت لنا رؤى ومعطيات أبرزها مجموعة من السنن الكونية التى دل القرآن عليها خلال حديثه عن الأمم السابقة.

ومنها - أيضا - تلمس لأبعاد المسألة الزمنية فى القرآن وهى تلك

المسألة التى تخبطت فيها الآراء الحديثة منذ بدايات (الداروينية) الأولى بين القائلين بالخلق المباشر المستقل والقائلين بنظرية التطور الطبيعى.

فالقرآن عبر استعمالاته للبعد الزمنى يبين لنا أن الروح الإلهية منجلية فى أصل الإبداع لكن لا يبين لنا (سر الروح) ولا المدى الزمنى الذى استغرقته عملية إبداع الكون بالنسبة لوعينا البشرى بالزمن، وهو وعى محدود جداً فى عصرنا فكيف بالعصور السابقة؟.

لكن الجلى من الآيات القرآنية أن فعل الله كان مباشراً، وأن هذا الفعل يسخر لتحقيق حكمة الله الدافعة فى التاريخ بقوتين: قوة الطبيعة المادية المنظورة وقوة الروح غير المنظورة. وهذه الأخيرة هى الفرق الجوهرى بين التفسير الإسلامى للتاريخ والتفسيرات الوضعية.. إنها (البعد الغيبى) «وما يعلم جنود ربك إلا هو».

ومما نستخلص من معطيات المسيرة القرآنية فى أطوار (الواقعة التاريخية) -- كذلك -- أن للإنسان دوراً أساسيا فى هذه الواقعة . وهذا الدور هو ما نسميه (بالحرية الإنسانية) التى هى فى مداها البعيد جزء من إرادة الله فى خلق الأفعال والأحداث.

وفى إطار هذه الحرية تتحرك قوى العقل والإرادة والانفعال والحس والحركة وغيرها من الطاقات التى ركبها الله فى الكائن البشرى «إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم»،وعشرات من الايات القرآنية التى تؤكد على المستويين الفردى والجماعى هذه الحرية المنسجمة - فى الوقت نفسه - مع الدوائر الكبرى التى تصنعها مشيئة الله وعلمه الواسع المحيط. وهكذا فإن الواقعة التاريخية تجئ وفق درجات ثلاث: أولاها: (علم الله ومشيئته) وثانيتها: (إرادة الإنسان وحركته) وثالثتها: هى (المادة

الخام) التى يخضعها الإنسان لإرادته فى إطار منسجم مع سنن الله الكونية التى لاتختلف، وفى حركة متوازنة محكمة الترابط بين دور الفرد ودور الجماعة أي بين النبى والأمة والبطل والجماهير والقائد والجنود وهكذا.

وفى القسم الثانى من بحثه يعالج الدكتور عماد الدين الدائرة الأوسع: دائرة المهمة التى خلق الإنسان - أساسا - لممارستها فى العالم والمركز الذى يحتله فى الكون، إنها (المسألة الحضارية) التى شغلت أذهان ابن خلدون وتوينبى وهيجل وماركس، وخيل للناس أن هؤلاء وحدهم هم الذين أظهروا هذه المسألة للوجود مع أننا -كما يقول المؤلف نستطيع أن نتلمس البدايات الأولى للمسألة بالرجوع إلى حادثة (خلق آدم) باعتبارها حجر الزاوية فى الوجود البشرى بل إن (المسألة الحضارية) - ما دمنا نعنى بهذا الجانب الحضارى (الفاعل المبدع) المواجه لكتلة العالم الطبيعية والمستجيب لتحدياتها -- تتخطى حادثة آدم إلى ما ورائية الوجود الآدمى...

أى أن سائر العمليات أريد بها تهيئة العالم لاستقبال المخلوق الجديد وإحاطة نشاطاته بالضمانات، وذلك إلى اليوم الذى قال الله فيه للسماء وللأرض: «إئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين» ... وبالتالى، وفى رأى الدكتور عماد الدين: فإن التاريخ الحضارى هو: (كل فعل تمتزج فيه إرادة الله وروحه وكلمته بالمادة فتصوغها كتلا كونية أو نظما طبيعية أو إنسانا يتولى خلافة الله فى الأرض لإعمارها).

لكن هل يستطيع أى منهج من مناهج فلسفة التاريخ أن يمد الطرف إلى هذه المرحلة؟ إن التاريخ الحضارى فى القرآن هو وحده القادر على تحقيق هذه الشمولية فى النظرة دون أن يعتمد على افتراضات

لاجدوى منها.

وحيثما انتقلنا فى أرجاء القرآن الفسيحة لمطالعة الآيات والمقاطع الخاصة بخلق الكون وجدناها ترتبط ارتباطا عضويا أسيلا بالدور المنتظر الذى بعث الإنسان ليقوم به - هذا من جانب - ومن جانب آخر بمرحلة تكوين جنين الحياة على الأرض..

أما المسألة الحضارية - فى جانبها الإنسانى - فترتبط بخلق آدم وبالظروف والدلالات والإرهاصات والرموز التى ساحبت لحظة تعيينه خليفة الله فى الأرض ومجابهته (بإبليس) الذى يمثل التحدى فى المسألة الحضارية.

ومن خلال «العمل العقلى والجسدى فى اتجاه الإصلاح أو الإفساد تتحدد نتيجة الصراع الحضارى بين الإنسان والشيطان وميدان هذا الصراع هو كتلة العالم والطبيعة التى يدور بينها وبين الإنسان حوار دائم وأبدى ... هو يسأل دائما وهى تتمنع - إلى حين - فى الإجابة»

«وفى القرآن الكريم مئات الايات والإشارات تنفخ فى الإنسان هذا المعنى الحضارى العظيم وتعلمه أن حواره مع الطبيعة لن يستمر إلا بالسعى والكدح والحركة» وسواء استمر الحوار بينهما على أساس (النظر الحسى) أو (الرؤية الداخلية) التى هى البصيرة أو (الفكر المجرد) القائم على البراهين والحجج فإن الصورة الفذة التى يطرحها القرآن عن ذلك التناغم بين الإنسان والطبيعة وما وراءها وذلك التوازن بين تسخير القوى المادية وتصنيعها وبين عبادة الله سبحانه، وذلك التقابل المبدع بين النزعتين الجمالية والعلمية، وهذه المعادلة الواضحة بين جبروت الإنسان وقدرته الفاعلة وبين نسبيته وضعفه وحاجته

الدائمة إلى الله.. هذه الصورة التى لم يستطع أصحاب المذاهب الوضعية الوصول إلى تصور أبعادها وحصروا أنفسهم فى دائرة محدودة أسموها (الصراع) أو (تحاور النقائض) المتقابلة أو الجدل (الديالكتيك) مع أن هذه الثنائية - وإن صحت لتفسير بعض الجوانب -فإنها- بمفهومها الوضعى - لاتصح لتفسير كل الجوانب.

لكن الصراع - مع ذلك - لايرفضه الإسلام كمبدأ عام أولى «وكذلك فتنا بعضهم ببعض»، «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض» ويرى الدكتور عماد الدين أن (هذا الصراع) ممتد فى التاريخ «ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم» لكن الدكتور خليل الذى عمم هذا المبدأ وأخذ على هذه المذاهب حلمها (يوتوبيا) أو (عالم البروليتاريا) الهادئ قد ترك شطرا من الاية «إلا من رحم ربك» وهو أيضا عند هذه النقطة قد طبق على عالم الفكر ما طبق على عالم المادة دون أدنى تفرقة بين المجالين، ففى رأينا أنه إذا جاز أن يكون الصراع أساساً أوليا من أسس التفسير الإسلامى للتاريخ فإنه لا يجوز أن نستسلم لهذه (القدرية الصراعية) وإلا فإن محاولتنا علاج المسألة الحضارية سيكون من باب (الحتميات) العامة التى تحمل فى كثير من جوانبها جزئيات مقهورة لا تنضوى تحت قاعدة.

وأيضا فإن كثيرا من جوانب (الواقع) - وليس (الفكر) الذى نوافق فيه المؤلف تماما- يمكن أن يدخل تناقضها فى باب (التعاون) الضرورى؛ لاستمرارية الحياة،فالصيف والشتاء والليل والنهار والمرأة والرجل والسالب والموجب والفرد والجماعة: كل هذه الثنائيات وغيرها ثنائيات لا تستطيع الحياة أن تستمر دون وجود أى منها، وبالتالى فهى (متقابلة متعاونة) وليست (متقابلة متصارعة) لأنه، لا يستغنى عن أى من المتقابلين فيها وليس كذلك الشأن فى المتصارعين.

وتبقى المسألة الثالثة والأخيرة من تلك المسائل التى اتكأ عليها الباحث فى تصوره لأبعاد التفسير الإسلامى للتاريخ (سقوط الدول والحضارات) وهى فى رأينا تشبه أن تكون (حقلا تطبيقيا) لمرحلة (التنظير) التى سبقت فى المجالين السابقين : مجال (الواقعة التاريخية) ومجال (المسألة الحضارية).

وفى هذه النقطة تقف الآية الكريمة «وتلك الأيام نداولها بين الناس» كمعلم رئيس فى التفسير الإسلامى لأسباب سقوط الدول.

وهذه (المداولة) تستهدف تمحيص (الجماعات البشرية) وإثارة الصراع الدائم بينها وخلق التحديات المستمرة، وذلك لكى يتم - فى النهاية - إفراز حركة دائمة متجددة فى التاريخ ترفض اليأس والهزيمة والتشاؤم ما دامت الحياة أشبه (بالناعور) الذى يدور فى جميع الاتجاهات.

والفرق الكبير بين الموقف الإسلامى وغيره: هو أنه يطرح إزاء مسألة سقوط الدول والتجارب والحضارات ما يمكن تسميته (الحتمية التفاؤلية) أى تقرير حتمية الانحلال والسقوط، لكى تنشأ دول وتجارب أخرى بمجرد أن تستكمل الشروط اللازمة لذلك وأولها عملية (التغيير الداخلى): «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

وهذا فى اتجاه الصعود .. أما فى اتجاه السقوط فإن للقضية أبعادا سياسية واقتصادية وأخلاقية وعقائدية تتصل بالقاعدة والقيادات:

- على المستوى السياسى - مسئولية «أكابر مجرميها» و«القوم المجرمين» «فاستخف قومه فأطاعوه..» وعلى المستوى الاجتماعى تبدو ظاهرة التناقض بين القول والفعل واحدة من أبرز أسباب

السقوط: «ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد»..

وللمترفين - وظاهرة الترف بعامة- القدح المعلى فى الدفع بعجلة السقوط خطوات إلى الأمام كما أن فقدان القيم (الأخلاقية) والعزوف عن (الجهاد) - كهدف إيجابى حركى دائم - من أبرز الأسباب فى عملية السقوط.

* * *

وهذه - بإيجاز - بعض إضافات (النموذج الأول) فى قضية التفسير الإسلامى للتاريخ!.

* * *

كان الدكتور على شريعتى - رحمه الله - من خلاصة المثقفين الشيعة الذين يتمتعون بثقافة إسلامية وعصرية واسعة.

ويعتبر كتابه (العودة إلى الذات) ممثلا لفلسفة شريعتى التاريخية التى تتلخص فى أن العودة إلى الذات - وبالنسبة للمسلمين هى الذات الإسلامية - إنما تمثل ضرورة حتمية يمليها التاريخ وقوانين الحضارة.

المؤلف يجيد الدفاع عن القضية التى يطرحها .. قضية العودة إلى الذات، مقدماً فكره فى اتجاه أصيل يخالف به تماما تلك التوجهات الغربية العلمانية أو التوجهات الغربية الماركسية.

لكن الإسلام الذى يدعو إلى العودة إليه - على أساس أنه (الذات) هو إسلام (معدل) - كما يقول المؤلف - إسلام لحقه الإصلاح (!!) وأعيد فيه النظر بوعى، ومرتكز على حركة نهضة إسلامية واعية . إنه

الإسلام - كأيديولوجية - وهو الإسلام الذى بعث الوعى وأحدث المعجزة فى هذه المجتمعات.

إن الذات بهذا الوعى هى الذات الإيجابية القادرة على الوقوف فى وجه التغريب الذى يريد تذويب ذاتنا فى ذات الغرب ، أو يريد محو ذاتنا فى صوفية ميتة كتلك التى يوجه أغلب المستشرقين اهتمامهم إليها ويحققون كل مخطوطة من مخطوطاتها عشرات المرات فى حين أن (٧٩ ٪) من مخطوطاتنا العلمية تتحلل وتأكلها الفئران.

أو فى تبعية ذليلة تجعل كثيراً من مثقفينا يفكر فى مصير مجتمعه عن طريق إنفاق كل حياته فى قضية الشعر الجديد والشعر القديم والفن للفن والسيد يونسكو وجوزيف دى كاسترو وكأنهم يتعاطون الهيروبيين ... ويريدون به علاج مجتمعهم ... فبكيت و كاسترو لا علاقة لذاتى ولا لتاريخى بهما ... بل أنا أنتسب . كمسلم إلى أبى ذر (!!) الثورى الإنسانى (!!).

وقد كنا نتمنى أن ينتسب المؤلف إلى محمد عليه السلام مباشرة (!!).

*إن الذات التى يدعو إليها المؤلف هى ذات تنبع من صميم الناس ... هى ذات إسلامية (نعـم) وهى ذات مذهب شيعى (نعـم) لكن أى تشيع؟ أهو هذا الذى يعيش قومنا على أساسه ويؤمنون به... لكن لا فائدة منه قط، إنه من أهم عوامل الركود وعبادة التقليد والجهل وعبادة الأشخاص فالمطلوب العودة إلى الذات الإسلامية!!.

العـــودة إلـــى أى ذات:

عندما بدأت مسيرة المسلمين فيما يسمى بعصر الاستقلال ظهر المصلحون التقدميون يطرحون رؤيتهم للذات المستقلة الجديدة... لقد اختلقوا لنا ألفاظاً شبيهة بألفاظ الجن، ولم يحاولوا الارتقاء بشعوبهم

بلغة مفهومة بل اشتبكوا مع الألفاظ الرائجة المفهومة واعتبروا مصائب شعب جاهل كسول هى الحجاب واللحية والكرسى (وسيلة للتدفئة) وبخبث شوهوا حقيقة الحضارة فجعلوها مجرد إنكار الله وإنكار الروح والرسول والقرآن وعلى والحسين ثم القومية والأخلاق ... وقدموا أبحاثا فلسفية وكلامية سوفسطائية للفلاحين والعمال المساكين.

ولم يحاولوا زرع بذور الحضارة الحقيقية ... فقط (هدم الإيمان) ... مع أنهم يعلمون بالتأكيد أن الحضارة هى درجة التكامل فى القدرة على التفكير واتساع الرؤية وعمق الروح ولطفها والنضج الاجتماعى وخلق الوعى الإنسانى والإحساس بالمسئولية، ومعدل الثروة الثقافية والقفزات الفكرية والعقائدية واستقلال الشخصية واستعداد الخلق والقدرة على الاستغناء والنقد والاختيار وإيجاد ضمير تاريخى واجتماعى...

إن الحضارة مزرعة ينبغى أن تبذر بذورها فى المدينة ثم تظهر وتنمو ... لكن (الثوريين - التقدميين)(١) تجاهلوا - عن عمد بيقين - كل هذا وركزوا جهودهم فى تخريب الوجدان والروح وإعلان حرب دائمة على كل ما هو غيبى وكريم وأخلاقى فى حياة الإنسان..!!

لقد نسى الماركسيون - عن عمد أو بلاهة - (وكلاهما خيانة) ما يقول به فرويد ويونج -بحق - بأن لكل مجتمع ما يسمى باللاشعور (وهو غير الوجدان الاجتماعى) بل هو يعنى خصوصيات المجتمع المغروسة من رحلته فى التاريخ...

فليس المجتمع مجموعة أشخاص - فى الحقيقة - بل هو (شخص إنسان) والأفراد خلاياه - والمفكر (شريعتى) يفضل هنا استعمال كلمة

(١) والعلمانيون وعاء للجميع وأفسد الجميع.

(جماعة) بدل مصطلح (مجتمع) - ويفضل مصطلح (قدر التاريخ) بدل مصطلح (حتمية التاريخ) وهذا المجتمع (الجماعة) يخضع لوجود قوانين مسلم بها يستند عليها كل مجتمع ... لكن المؤلف لايؤيد خضوع كل مجتمع أو أمر اجتماعى أو تاريخى وتأويلهما على أساس القوانين الكلية والأحوال العامة لعلم التاريخ أو علم الاجتماع، ويعتبر ذلك من التعميم العام الخطـــر وهو نظـــرة عموميـــة تؤدى إلى منزلقات...

والحقيقة أن (شريعتى) تخبط عند هذه النقطة ، فهو خلال صفحتين فقط يتناقض غير مرة بين الإيمان بالقوانين، وبين عدم الإيمان بتطبيقها ومن هنا - والكلام لشريعتى - فإننى مع إيمانى بالوجود العلمى الذى يعرف باسم التاريخ أو الاجتماع أى القوانين الثابتة أو الكلية التى يحيا المجتمع الإنسانى على أساسها ويتغير أعتقد أن تأويلها أى تطبيق هذه الأصول والمعايير الكلية الموضوعة سلفا - ولو وضعا علمياً - على مجتمع معين يستوجب ألا نعتبر أن هناك أوجه نقص على الإطلاق فيما نسميه فلسفة التاريخ (....) وكلما واجهتنا ظاهرة عميقة جداً ولاسابقة لها نقوم بتحريفها بشكل ما حتى تكون قابلة للتطبيق والتعليل مع موازيننا.

ولم يستطع (شريعتى) أن يعى أن الأمر ليس كذلك، وأن علم فلسفة التاريخ (وأنا أستعمل كلمة علم عن عمد وسبق إصرار) ليس أرقى من فلسفة الطبيعة، وبالتالى فاكتشاف ظاهرة جديدة لايجوز أن يؤدى بنا إلى تجريفها لنخضعها لقوانيننا الصارمة، بل يجب أن يؤدى بنا إلى إلقاء نظرة جديدة فى القوانين التى بين أيدينا، وغربلتها وتعديلها وإضافة حلقات جديدة إليها .. ولا تعنى الحتمية التاريخية - من وجهة نظرنا الإسلامية - (وأنا أؤيد (شريعتى) فى استعمال مصطلح

قدر التاريخ) (القانونية) التى لانسبية فيها، فمثل هذه القوانين لاتزال أبعد من طموحات العلوم الإنسانية ، بل والطبيعية أيضا فى التطور الأخير ... وأيضا ... من وجهة النظر الإسلامية فى تفسير التاريخ - ستبقى نسبة - دائما - للفعل الإلهى المطلق لايستطيع العقل البشرى اختراق أسوارها ... لأن اكتشاف كل مفاتيح الحركة الكونية أو التاريخية لايتناسب مع الطاقة الإنسانية ... بل هى ليست فى حاجة إليه..

لقد توسع كم المعرفة وكيفها - بيقين - فى الحقبة الأخيرة - ولاسيما فى القرن التاسع عشر، لدرجة أن ما طرح من فلسفات التاريخ قد امتد أيضا، فكثرت لدينا المعلومات عن فترة ما قبل الحضارة (ولا أقول ما قبل التاريخ كما يقول شريعتى احتذاء منه بمالك بن نبى)، كما أن علم الاثار وعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) قد أمدنا بفيض كبير من المعلومات المتصلة أوثق الصلة بالعملية الحضارية ... لقد تمزق رداء حتمية الماركسية ... واقتربنا من الإيمان العقلى الكامل (بقدر الله) أو القدر التاريخى الذى يؤمن (بحتمية نسبية) ... وقد تهاوت كل أطروحات وتنبؤات الماركسية، ولم يعد ثمة أمل فى سقوط (الإمبريالية) بل الأمل الأكبر الان هو فى تكيف الماركسية مع كثير من معطيات التقنية والحرية الليبرالية(١) .. هذا بالإضافة إلى اهتزاز الأسس العلمية للمادية بعد ظهور نسبية أينشتاين وقانون

---

(١) كان (شريعتى) حالماً، ولم تكن عبقريته التنبؤية لتصل إلى عبقرية العقاد الذى حدد تاريخ السقوط النهائى للماركسية تحديداً صادقاً بنسبة تزيد على ٩٥٪ (!!) وماعادت الماركسية قادرة على أى تكيف.. لقد هوت إلى القاع واحتضرت تماماً!!

(عدم الحسم) فى الفيزياء الحديثة وحساب الاحتمالات والأعداد العظمى فى الرياضيات وتعميمها فى العلل الإنسانية..

إنه - بعيداً عن أية مدرسة اجتماعية أو أيديولوجية - فلابد من أن تتوافر أسس مشتركة لطريق عودتنا إلى ذات واعية فاعلة.

وأهم هذه الأسس (كما يراها شريعتى) هى:

١ - أن الوعى الاجتماعى اليقظ لقلب الأمة وضميرها هو الأساس، وبدونه سوف تبقى كل حركة عقيمة ومجردة.

٢ - أن الناس فحسب هم الذين يستطيعون تحرير أنفسهم، وينبغى أن تكون قيادة الحركة فى أيديهم مباشرة ... وما لم يصل قلب الأمة إلى الحماس والانفعال التلقائى، وما لم يصنع الشعب من بينه أبطالا أو بالتعبير القرآنى الرائع «أميين» وما لم يقدمهم إلى صفوفه الأولى، فلا أمل فى التغيير..

٣ - ضرورة الإيمان بأن الفقر أو الظلم وحده ليس سبب الثورة بل الإحساس بهما هو أساس التغيير، ومن هنا فيجب تغذية هذا الشعور..

الحتمية التاريخية والإنسان:

بالطبع .. الحتمية التاريخية عندما تفهم على أنها مرادف للقضاء والقدر - بالطريقة الكونية الاستسلامية - فإن السلبية ستكون هى النتيجة الحتمية .. لكن الانسان هو الذى يستطيع بقدر نضجه وتصميمه - أن يفرض إرادته على إرادة التاريخ (وإلى هذا القدر ونحن نتفق مع شريعتى)، لكن هناك ملمحاً كان من الواجب إيضاحه، فثمة نوع من الجدلية الرائعة بين الانسان (البطل) والتاريخ .. فهو -الانسان- يستطيع أن يقف فى وجه التيار التاريخى، أحيانا وكما أنه

يحاور الطبيعة ويسخرها فى عملية إبداع رائعة تحرسها (سنة الله) - فكذلك يستطيع الإنسان القيام بهذا الدور مع التطورين الاجتماعى والتاريخى ... وسيحصل على نسبة نجاح هى النسبة نفسها التى تفصل بين الحتمية التاريخية النسبية و(القدرية الإلهية) المطلقة... لقد كنا نأمل أن يبرز (شريعتى) هذه الحوارية الرائعة ...

وفى هذا السياق نفسه نحن لا نؤيد شريعتى فى هذا التعميم الذى يطلقه على تاريخنا الإسلامى ، حيث يلتقى (دون رغبة منه) مع أعداء هذا التاريخ .. وما كنا نأمل أن نجد عبارة مثل (البيئة السوداء المظلمة لعصر الخلافة وعصر المغول) مشحونة بكل هذه الألفاظ الداكنة عن (عصر الخلافة) .. دون أن يحدد لنا أية خلافة يقصد ؟ هل هى خلافة الأمويين الذين نتمنى الا يكون له موقف (أيديولوجى) منها لخلفيته الفكرية والذاتية (!!) أو خلافة العباسيين ؟ أو العثمانيين الذين نحمد لشريعتى أنه مدحهم، وأنه كشف حقيقة دور (الصفويين) الآثم تجاههم (حماية لأوربا من الزحف العثمانى) وبالتأكيد فأنا أستبعد أن يقصد عصر الخلافة الراشدة (!!)...

إن هذا التعميم (الظالم) -بالتأكيد- لايجوز أن يصدر عن شخصية (واعية) بدور التاريخ التحضيرى، مثل شخصية (على شريعتى)!!- ومرة ثانية نجد (شريعتى) يحاول لشعوره ربما بعدم الانسجام الذى ألمحنا إليه وأسميناه تناقضاً فى فهمه لحتمية التاريخ -- يسرد علينا تفسيره مرة ثالثة أو رابعة - لحتمية التاريخ، مقتربا - فى الحقيقة - إلى أقرب نقطة صحيحة وصل إليها - فى تفسيره لهذه الحتمية مشيرا إلى أهمية عنصرى (العلم والخلافية) كعنصرين مساعدين فى تغيير الإنسان لحركة التاريخ.

ويعود - شريعتي - ليكرر المبادىء الثلاثة وهي مبادىء الوعى

الاجتماعى، ودور الأمة «كمجموع»، وأهمية الإحساس بالكوارث وهي المبادىء التى يراها (شريعتى) أساساً لعملية التغير والفاعلية... وكلها تعود إلى تعميق دور (الوعى) الذى يسبق مرحلة التغيير.

الإحساس بالماضى والتغريب:

إن خطورة عملية التغريب لا تتمثل فقط فى التشبه فى الملابس أوالعادات أو سلوكيات المرأة ... بل تتمثل فى جماعة المثقفين الذين يفترض أن لديهم فكراً، فاغتراب هؤلاء هو سبب الكارثة (القومية) (!!) والشلل الاجتماعى، ذلك لأن الفئة الأولى من البشر الذين صاروا (أشياء) فإن «الأوربة» عندهم فى الجسم، أما الفئة الثانية فهم (فكر) وعندما يشل الفكر ويفقد القدرة على التحليل والاختيار ويتحول إلى صورة (مستملى) للاخرين فالأمر مصيبة (!!) وعن طريق إلغاء هؤلاء المثقفين لأنفسهم، وإنكاره دوره فى التاريخ واحتقار كل ما يمت إلى ذاته، والفرار من كل ما يذكره بماضيه، والتشبه بالآخرين يبحث لنفسه عن شخصية جديدة وصفات جديدة وقيم جديدة... ولهذا كان هم الاستعمار تخلية الأمم ذوات التاريخ العميق والثقافة العالمية من محتواها وفصلها عن تاريخها بواسطة الحيل العلمية وعلم الاجتماع المعقد الذكى... حتى يصل بالمثقفين الى هذه المرحلة الخطرة... أى مرحلة ضياع (الأنا التاريخى) والذوبان فى (الهو الأوربى)... فمثل هذه المخلوقات (الجديدة) المفرغة من ماضيها وجذورها وقيمها .إذا ما فقدت التقليد للأوربى - والتشبه به - تصير وجوداً فاقدا للماهية .. لأنها فقدت وجودها الحقيقى وانفعالاتها الأصيلة... ومثل هذه المخلوقات التى فقدت نفسها لا تستطيع أن تقوم بدور فى حضارة أمتها..؛لأن الإنسان وليد التاريخ، والشخصية الإنسانية للفرد هى مجموعة الخصائص التى استمدها من تاريخه.

والشعوب التى فصلت عن تاريخها تدهورت إلى مستوى الأمم الفاقدة للحضارة والثقافة.

إن الاستعمار لكى يستطيع خلعنا من ماضينا لنكون فى (العراء) يروج بيننا خطورة ما يسميه (بالتعصب) لكى ننفتح على تراثه وحضارته ونترك ولاءنا لحضارتنا ونصبح عصريين مستهلكين، وقد كان جمال الدين الأسد آبادي (بل هو الأفغانى --راجع محسن عبد الحميد ومحمد عمارة) يدرك خطر لعبة العصرية قبل قادة آسيا وأفريقيا التقدميين كلهم... ومن هنا وقف ضد تأسيس (بنك أمريكى) وضد صور العصرية الاستهلاكية التى تحول المدن الإسلامية إلى قصور فخمة وعمائر ومطاعم ومقاه ومحلات فخمة، وتصبح المدينة مخزنا دولياً للسيارات، ومعرضاً عالمياً لسيارات اخر موديل وأجهزة التلفاز والبلاجات ومؤسسات الزينة والنوادى والحدائق الأوربية الشكل ... هذه (العصرية) الجاهزة تقدم للمسلمين والعرب البسطاء بديلا للحضارة والتحديث الصحيحين اللذين يعبران عن النضج الثقافى والمعنوى فى المجتمع وفق خطط وتضحيات وصبر وألم وأيديولوجية ورؤية كونية متحركة وإيمان ووسائل وحدة فى المجتمع.

- لقد ظن البعض أن الفلسفة والثقافة والعلوم التقنية والاداب والفنون هى التى تصنع الحضارات، وهم فى غفلة عجيبة، فلقد وضعوا المعلول مكان العلة... فهذه الأمور (نتيجة) حتمية للحضارة الحقيقية ... ومواد الحضارة ومعماريوها هم قادة الحركات الذين يكونون غالبا (أميين) لكن لهم رسالة اجتماعية ... وقد يكونون مثقفين ، ولكنهم من القلة المفكرة التى تملك وعيا سياسيا واجتماعيا وتحس بارتباطها بمصير المجتمع وتهضم قضاياه الاجتماعية وحضارته!!

إنه المفكر (قبل أن يكون مثقفا) الذى يعرف مجتمعه معرفة

حقيقية ومباشرة ويحس بآلام عصره وحاجته ومثله، إنه الذى يستطيع أن يحدد فى أى مرحلة من التاريخ يعيش مجتمعه أو بعبارة أخرى ما هو (زمانه الاجتماعى)!!

الاتحاد الاستعمارى الرأسمالى الشيوعي:

فى الحرب العالمية الثانية تزوجت الرأسمالية الشيوعية، ووجدنا بعد قليل إيدن المستعمر وابن جوريون وجى موليه الاشتراكى يقومون بحملة واحدة .. ووجدنا أمريكا وروسيا - نتيجة هذا الزواج الحرام - يفرزان لنا ابنة غير شرعية نتيجة للزنا الذى حدث بينهما فى الحرب الثانية هى ما يسمى (بإسرائيل) التى يرعاها الطرفان على السواء حتى اليوم ... وبنشاط غريب وذكاء رأسمالى مشترك وبروح المسالمة والتعايش الذى تعانقته الشيوعية والرأسمالية ... فتصالحت الأطروحة وعكس الأطروحة وصارتا يداً واحدة وفكراً واحدا .. والشيوعية والرأسمالية كلتاهما تضع فمها فى مخلاة البرجوازية ... المخلاة المليئة من خراب الشرق ونهب آسيا وأفريقيا.. لقد يئست الشيوعية من صحة نبوءتها بانهيار الرأسمالية، ولم يعد أكثر الماركسيين تفاؤلا ينتظر على الأقل (كما يقول شوارتز) فى المائة السنة القادمة حركة ثورية فى البروليتاريا الأمريكية .. وبالتالى اضطرت الشيوعية القبول بأى مهر من فضلات الرأسمالية وقبلت السفاح !!

وهكذا فالرأسمالية والشيوعية لم يعودا يختلفان (أيديولوجيا) بل يختلفان فقط على تقسيم نحاسنا وأرضنا وبترولنا...(١)

---

(١) على الرغم من سقوط الماركسية بأكثر مما كان يتوقع لها إلا أننا نسجل هذه الحقائق ليحفظ للفكر الإسلامى دوره فى حركة مقاومة الفكر الشيوعى، وفى الرؤية الاستشرافية بسقوطه، متفوقاً على كثير من الأفكار والأطروحات.

إن الماركسية فقدت (ذاتها) من زمان، حتى المشهورين بأنهم من غلاة الماركسيين هم قوميون أكثر منهم ماركسيين، و (كاسترو) قومى قبل أن يصير شيوعيا.. والشيوعية ستار يتلفع به لحماية كوبا من الذوبان فى ساعة فناء، أى فى مواجهة أكبر قوة فى التاريخ حسب علمنا... (واسألوا سارتر نفسه عن حقيقة كاسترو وقارنوه بسوكارنو وابن بيلا ونكروما ولومومبا... فهم شيوعيون (مهنــة) لا عقيدة... لكى يقفوا ضد الاستعمار... ولقد وقف ماركسيو فرنسا مع احتلال فرنسا للجزائر باسم (القومية)...

إن الإسلام هو (قوميتنا) وهو الذى يستطيع أن يقود (بسبب روحه السياسية والحضارية الخاصة) بل ويتعهد بتحقيق رسالتين اجتماعيتين؛ إيجاد الرباط الثقافى المباشر للذات وملء الفجوة بين عوام الناس وخواص المفكرين، ومن ثم فهم الواقع كما هو وإخضاعه للقيم أى بتغييره وفقها... وليس (بالعلم للعلم) كما يقول السذج الذين يريدون التفرقة بين الواقع والقيم، وظنوا علم الاجتماع مثل الرياضيات الحديثة... علم بلا أى التزام نحو التغيير الحضارى...

والارتباط بالقيم سيحول دون استشراء هذه الآفة الخطيرة المدمرة للمجتمع برؤوسها المخربة الثلاثة: رأس «الشللية» الثقافية أو المظلة الحزبية أو الأيديولوجية التى يحتمى فيها أهل الفكر والأدب، ورأس التعصب لدين (الأنتلجنزيا) أى الاحتراف الجامعى واحتلال حملة المؤهلات الفارغين من الفكر للوزارات والمصالح... فهذه الرؤوس الثلاثة المخربة تقف بالمرصاد لكل مصلح أو مفكر محايد.. ومرة أخرى - وأثناء تحليله الرائع - يسقط (شريعتى) فى هاوية الموقف المذهبى المسبق، فيعمم حكمه، ويدين ضمنا مائة سنة (تسعين !!) حكم بنى أمية وستمائة سنة حكم بنى العباس.. فماذا بقى من تاريخنا؟.

لكن – بعيداً عن هذه التعميمات العابرة -- يكشف شريعتى بعلمية كاملة – تلك الشركة المتحدة المجرمة الجديدة ... شركة الرأسمالية والاشتراكية المتفقة على تقسيمنا، والمختلفة – لا على مذهبية أو أيديولوجية – بل – فقط – على نصيب كل منهما منا...!! وينجح شريعتى فى تعرية هذه الشركة المتحدة علينا كل النجاح.

* * *

يوضح شريعتى جانباً مهماً... فقضية الميل إلى اليسار الاشتراكى أو الليبرالية أو الإلحاد قضايا ليست فى بساطة (الكوافير) أو رفع السروال ... ولا حتى من نوع القضايا العلمية فى الفيزياء والكيمياء والتكنيك الرياضى، فلها جانبها الفكرى والأخلاقى والإنسانى... ولها ارتباط بالخصائص الروحية ونوع الرؤية والضمير والشخصية...

وفى هذا السياق الجميل يسقط شريعتى مرة أخرى فى إحدى الجزئيات حين يورد لنا حديثا بلا سند (وهو مما لم نعرفه) يقول فيه الرسول: (لو علم أبو ذر بما فى قلب سلمان لقتله) (فأى صحابة هؤلاء) ؟ ولمقاومة التغريب لابد من فهم الغرب – فالتغريب كالسم يطرد بنفس الترياق... لكن المعرفة المطلوبة هنا هى معرفة الثقات... لا معرفة الأقزام (وهذ ما لم يوضحه شريعتى)!

إن مناخ التغريب و «العلموية» قد ظهر فى ظروف لا تمت إلى حضارتنا بصلة فهناك الجنوح المضاد للسلوك الكنسى الإرهابى والجهاد من أجل طرد الدين من مسرح الحياة والمجتمع والعلم... وهناك – فى عالم الكنيسة توجد علاقة عكسية بين الدين والحضارة، وكانت الكنيسة هى الغطاء المعنوى والثقافى لنظام الإقطاع... ومن هنا كانت

«العلموية»... وأين هذا من طبيعة حضارتنا ؟ دعك من رفض الدنيا والزهد الكاذب ومحاربة الشعور القومى (!!) والاستقلال السياسى وتدخل الكنيسة فى كل شئ... ومن هنا ظهر (الثالوث) الخطير الذى أفرزته العلمانية من خلال حركة مقاومة الطغيان الكنسى... ثالوث (رفض الالتزام) لصلته بروح الكنيسة، والاعتماد على المشاهدة (الحسية) ورفض الغيب (الكنسى) (والغرور) العلمى فى مواجهة الإذلال الكنسى السابق... وهذا الثالوث رد فعل واقعى للهيمنة الكنسية، ولا علاقة له بنا لينقله بعض صبياننا.

ونحن مع (شريعتى) فى ضرورة تحديد (جغرافية الكلمة) فقد تكون كلمة (القومية) معقولة فى المحيط الغربى للتخلص من الكنيسة، وقد تعطى آثارا سيئة فى المحيط الإسلامى، ومثلها كلمة (العلمانية) وهكذا ... وعلى مفكرينا تحديد جغرافية الكلمة وإطارها التاريخى حتى لا يتورطوا فى نقل أعمى يضيع كثيرا من الخطوات ... بحركة عمياء غير واعية بالجغرافية والتاريخ ..!!

وهكذا يقدم لنا (النموذج الثانى) عدداً من الإضافات فى حقل الرؤية الإسلامية للتاريخ.

* * *

أما النموذج الثالث فيقدمه لنا الدكتور محمود محمد سفر حول عنوان: (الحضارة تحد)... وعناصر التحدى الحضارى كما يراها الباحث الدكتور محمود سفر - تكاد تنحصر فى القضايا التالية:

١ - شحذ الفعالية الروحية.

٢ - استيعاب حضارة العصر.

٣ - تبنى أساليب الحضارة المعاصرة أو إبداع البدائل.
٤ - حماية المنجزات الحضارية.

ويتصل بالقضايا السابقة معالجة قضيتين هما:
١ - فكرنا والحضارة المعاصرة.
٢ - قيود البعث الحضارى.

ومن ثم يعالج الباحث (الأركان الأساسية للحضارة) وهى:
١ - تأثير الإنسان (الكثافة السكانية).
٢ - تأثير المكان.
٣ - تأثير الزمان.
٤ - عنصر القدوة (مع بعض النماذج).

ففى مواجهة التحدى الخطير الذى تواجهه أمتنا فى العصر الحديث، ولكى تستطيع أمتنا أن تجد لها مكاناً وسط عالم يقوم على الصراع الحضارى من أجل الحياة والبقاء، وبتعبير آخر ،فى مرحلة الإقلاع الحضارى لأمتنا المسلمة يقف أمامنا سؤال خطير يحتاج إلى إجابة قوية وعملية:

- هل يستطيع مسلم اليوم بما يملك من عقيدة وإيمان وإمكانات مادية أن يعبر الفجوة الحضارية التى تفصله عن حضارة العصر، وأن يستوعب حضارة العصر، حتى يكون قادرا على وضع حضارة تحمل هويته وتعبر عن شخصيته وتفرض نفسها على الحضارات الأخرى؟

- ويجيب الباحث على هذا السؤال الأساسى بقوله:

- إننا نستطيع مواجهة هذا التحدى إذا ملكنا روح المسلم الأول الذى كان يتمتع بقوة العقيدة وعمق الإيمان وصدق العطاء.

وبجانب روح المسلم الأول لابد أن تكون لدينا البصيرة والقدرة على حماية أنفسنا من الوقوع فى شراك التقليد والمحاكاة للحضارة الغربية دون تفريق بين مزاياها ومساوئها ...

وما دام (الإنسان) هو محور العملية الحضارية، فإن شحذ فعاليته الروحية أمر جوهرى. ويرى الباحث أن شحذ الفعالية الروحية يخضع لعدة عوامل أهمها دور «المنزل»، وبرامج التربية الدينية، وبرامج الانتماء الوطنى ووسائل بثها، والقدوة الصالحة وما توسمه من منهج عملى... ولعل الباحث يقصد من (برامج الانتماء الوطنى) دور الإعلام، لكننا كنا نؤثر - عند هذه النقطة النص الصريح الواضح على دور الإعلام فى شحذ الفعالية الروحية، فلا شك فى أن دور الإعلام - فى هذا العصر أصبح خطيرا كل الخطورة، بل هو أخطر من بعض الأدوار التى ذكرها الباحث، بل هو يستطيع الإسهام فى كل الأدوار التى ذكرها، وهو فى المقابل من الطغيان بحيث يستطيع - أيضاً - إفساد كثير من فعاليتها...

وعند هذه النقطة - أيضا - كنا نؤثر أن يستعمل الباحث مصطلح (التربية الإسلامية) بدل التربية الدينية... وفيما سوى ذلك فنحن نوافقه فى كل ما ذكره بل إنه كان موفقا غاية التوفيق، فى كثير من جوانب تحليله، ولا سيما عندما مزج مزجا كاملا بين برامج التربية الوطنية، وبرامج التربية الدينية (!!)، وأكد على ضرورة أن تتكئ الأولى على الثانية، وألا تنفصل عنها من حيث المحتوى والقيم والنماذج والأمثلة.

ويرى الباحث أن مهمة شحذ الفعالية.. الروحية الأمة منوطة بنوعية خاصة..: (إنها مهمة النفر القدوة المؤمنة بالله وحده إيمانا عقلانياً لا يخالجه شك ولا تحيط به ريبة.. إنها مهمة النفر القدوة

التى تخاطب العقول وتوقظ المشاعر وتضع حلولا علمية عملية لمشكلات المجتمع، كى يكون قادراً على مواجهة تحديات الحضارة) وهى أيضا مهمة الجامعات ... – وليست مهمة السياسي – وليست هى كذلك مهمة حفظة التراث، فهؤلاء مشغولون بتنظيم الكتب فى رفوف رءوسهم.

وليست هى كذلك مهمة المهنيين المنشغلين بدقائق مهنهم، ونحن فى الحق – لاندرى سبباً لاستثناء طوائف معينة من مهمة شحذ الفعالية الروحية – أليس كل هؤلاء من ذوى «المنازل» ؟! وبالتالى، أليست الفعالية الروحية دعوة عامة يتحمل كل منا نصيبه فيها على قدر حجمه وقدرته، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، اللهم إلا أن يكون الباحث الكريم قد قصد الحديث عن (القادة الحضاريين) فيمكن – عند هذا المستوى –تخصيص طوائف قيادية معينة... وأيضا فإذا كان بعض حفظة التراث – كما وصف الباحث : فالحق أن كثيرا منهم لم يكونوا كذلك، بل كانوا – أيضا – قادة حضاريين ، وفقهاء واعين بالمهمة التاريخية والإسلامية المنوطة بهم... وبالتالى فلا يمكن استثناء هؤلاء من مهمة القيادة الروحية!!.

ومرة أخرى –عند هذه النقطة – كان الأمر يحتاج إلى إشارة واضحة عن دور الإعلام والأدب والفنون فى شحذ الفعالية الروحية المطلوبة للأمة فى مرحلة إقلاعها الحضارى!!.

* * *

إن الباحث يقف أمامنا ثابت المنهج قوى الاستيعاب صاحب رؤية حضارية ممتازة عندما يحدثنا – فى النقطة التالية– عن استيعاب حضارة العصر... فالعلم –بلا شك – هو الأساس الذى قامت عليه

حضارة العصر.. ونحن معه، فى أن مدخلنا نحن -المسلمين- إلى هذه الحضارة لن يكون إلا بالعلم.. أى عن طريق شحذ الفعالية العلمية - بعد الروحية - للأمة.. ولعل هذا معنى من معانى بداية القرآن بآية «اقرأ باسم ربك»!!.

وخلال الرحلة من «كبلر» إلى «نيوتن» إلى «أينشتاين» استطاع الغرب أن يخرج من مرحلة «التكديس» العلمى إلى مرحلة «التقنين» العلمى!!.

وأمتنا مدعوة إلى أن تمر بسرعة -بهذه الرحلة - من خلال استفادتها الكاملة، ومعاناتها الصادقة، لعملية الميلاد العلمى، ومن خلال مزاوجتها -أيضا- بين العلوم والحرف المهنية، وإدراكها أن أرباب التكنولوجيا الحديثة لن يسمحوا بتعليم دقائقها لآخرين، (وهذا هو الواقع فى عالمنا المعاصر للأسف الشديد) إننا يجب أن نعى جيداً أنه لن يمكننا الحصول على دقائق التكنولوجيا المعاصرة حتى ولو دفعنا من أجلها المال الوفير!!.

والباحث يصل إلى قمة المواجهة الصادقة لواقع أمته حين يقول لها:

«إن ما يسمى بنقل التكنولوجيا من دولة متقدمة إلى دولة متأخرة هو فرية كبرى صدقتها شعوب العالم الثالث، وظنت معها أن التكنولوجيا سلعة تبيعها لها الأمم المتقدمة من أجل المال».

«طريقنا إلى التكنولوجيا الحديثة لابد أن يمر بمراحل علمية تشبه التطور الزمنى فى بلاد الغرب».

«إن الذى يزيد النفس حسرة هو أن شعوب العالم الثالث ما زالت تعيش فى هذا الوهم الكبير بعد أن نسجه لها خيال نفر ممن فقدوا صفاتهم، وافتقدوا خصائصهم أمام انبهارهم بحضارة الغرب وتعلقهم

بتقدمه التقنى فانخدعوا له وخدعوا شعوبهم به».

وينتهى الباحث - بعد إيضاحه لأبعاد هذه الرؤية الرائعة إلى أن (استيعاب حضارة العصر يعنى استيعاب الأصول والطرائق والنظم، أما الدقائق فهذه لا يمكن لأصحاب الحضارة منحها وإنما تدرك بالممارسة الواعية والتفاعل البناء)!!.

والأمة المسلمة، وهى تعالج عملية التطور، لابد لها أن تملك النظم الحاكمة للمؤسسات الحضارية المطلوبة، وأن تعى أن النظم الحاكمة لا تولد فتية متكاملة، بل تبدأ طفلة وتنمو مع التجربة والمحاولة والخطأ والصواب.

وأمامها خياران فى هذا السبيل، أن تتبنى المؤسسات الحضارية الغربية مع تعديلها - عن طريق الممارسة والتجربة - بما تحقق المبادئ والقيم والأخلاقيات الذاتية... (وهذا فى رأينا صعب) !!

- أو أن تبدع البدائل وهذا فى نظرنا هو الحل الحضارى الأمثل ... ونحن مع الباحث فى أن عملية البدائل يتولاها أهل الاختصاص فى ظل مراقبة حماة الحضارة أصحاب العقلية الفقهية المجتهدة الواعية!!.

وأثناء عملية المعاناة الحضارية والمواجهة، وإبداع البدائل، يجب أن لا نغفل عن (حماية المنجزات الحضارية للأمة) بالتركيز على جانبين:

- جانب الحماية الذاتية عن طريق ذات الفرد المسلم المواطن المتجاوب حضاريا، والواعى بسنن الله فى الكون وبآفات الحضارة.

- وجانب الحماية الخارجية المنوطة بأجهزة الدفاع العسكرية والاجتماعية والدفاع الفكرى والنفسى.

وهنا - عندما نقوم بكل هذه الشروط - تكون رحلتنا إلى

الحضارة، منذ الإقلاع، وحتى الوصول، رحلة آمنة تمشى فى الطريق المستقيم.

* * *

فى الشوط الثانى من رحلة الباحث، بعد أن قدم لنا بسطا طيباً لعناصر التحدى الحضارى للأمة ، يواجه الباحث - معنا - قضية من القضايا الأساسية فى عملية الرؤية الواعية لمعالجة التحضر ... إنها قضية (فكرنا والحضارة المعاصرة)، ومروراً بتعريفات ابن خلدون للحضارة، وبما اصطلح عليه كثير من المؤرخين من التفرقة بين مصطلحات الحضارة والمدنية والثقافة ، على أساس أن الحضارة مستوى معين من الرقى تشمل المصطلحين التاليين، أما المدنية فتختص بالجانب المادى، وأما الثقافة فتختص بالجانب الفكرى ...

مروراً بهذا كله يرى الباحث من منظور إسلامى أن الالتحام قائم بين هذه المصطلحات، وأن مدلول الحضارة مزيج من الرقى فى مجالات شتى كالأخلاق والسلوك والتربية والعلوم التجريبية والبحتة..

وفى ظل هذا الفهم الشمولى يجب على الإنسان المسلم أن يتمسك بمفهوم الحضارة الفكرى الشامل، وأن لا نفرط فى التسلسل المنطقى لإنشاء الحضارة، أو قل - إن شئت - لبدء دورة حضارية جديدة فالفكر هو البداية، ثم تأتى المدنية بصور تقدمها المختلفة، وليس العكس!!.

وليس الفكر المقصود هنا - إلا فكر القرآن والسنة وما انبثق عنهما من اجتهادات ونظم وقيم حياة أصيلة ومبتكرة... أما الفكر التراثى بتراكماته الفكرية والإيجابية والسلبية، فمن الضرورى إخضاعها لعملية غربلة لا تفريط فيها ولا إفراط على ضوء قيم القرآن والسنة

والموقف نفسه يجب أن نقوم به فى غربلة الفكر المعاصر، ومن خلال:

١ - القرآن والسنة.
٢ - غربلة الفكر التراثى (الماضى).
٣ - غربلة الفكر المعاصر (الحاضر).

من خلال هذه المنظومة نستطيع أن نصل إلى الفكر الذاتى، لكى يكون منطلقنا فى البدء الحضارى صحيحاً ومستقيماًوشاملا.

وهنا تبدو قضية (جمود الفكر) من أبرز (قيود البعث الحضارى للأمة): «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون» (البقرة١٧٠) .. وبدهى أنه (عندما تفقد الأفكار ديناميكيتها، تبدأ النظم فى فقدان ديناميكيتها، وهكذا دواليك لتصل الأمة إلى ما نسميه فترة الانحطاط حيث تتجمد الأفكار والنظم معاً).

ويتبع هذا الجمود الفكرى، ما يسميه الباحث (القيود الاجتماعية) أى صور الجمود، التى تتجسد فى بعض العلاقات الاجتماعية، وتعوق الضمير الفردى من الانطلاق وتحده فى إطار الضمير الاجتماعى، ولو كان مخطئا (ومن صورة المجاملة والتواكل والإسراف فى الاستهلاك فى المناسبات والأعياد والركون إلى الكسل وعدم إتقان العمل وعدم المحافظة على المواعيد..).

وكل هذه قيود اجتماعية ليست من الإسلام فى شئ !!

ويقتضى منا البعث الحضاري تغييرها ، حتى لا تمنعنا من الانطلاق!!

* * *

والإنســــان !!

هو الثروة الكبرى التى يجب أن نحرص عليها فى كـل مراحل إبداعنا الحضارى.

وكما أشار الباحث - سابقاً - إلى الإنسان عند شحذ الفعالية الروحية والعلمية.. ها هو ذا - مرة أخرى - يعود ليتحدث عن «الإنســان» من زاوية ثالثة... إنها زاوية (الكثافة السكانية)، وعلى عكس ما يرى المسحوقون فكريا يتجه الباحث صوب الحقيقـة الكبرى، وهى أن (الكثافـة السكانية) شرط من شروط انطلاقتنا الحضارية لكن بشرط تحقيق الفعالية الاجتماعية، أى قدرة الإنسان على العطاء والتضحية من أجل أمته ووطنه «فالكثافة السكانية المثلى سوف تحددها طبيعة العصر، ولكنها لا بد أن تقع بين قيمتين أساسيتين: قيمة صغرى أى إفـراز الكـوادر الحضارية المطلوبة ... والقيمة الكبرى أى عندما يصل المنحنى الحضاري إلى حالة تشبع فيصبح هناك فائض بشرى لا تستطيع الإدارة الحضارية أن تستوعبه فيصبح معوقاً لابد أن تتنبه لخطورته أجهزة الحضارة فتعدل من نفسها من أجل استيعابه الكامل»...

وهنا نصل إلى النتيجة الصحيحة التى انتهى إليها الباحث وهى: «أن الخطأ ليس فى الكثافة السكانية... وإنما بأن تعدل الإدارة الحضارية نفسها» «ومن الغريب أن نشاهد فى مجتمعات نامية من ينادى بإصلاح الأمور عن طريق تحديد النسل بينما الأجدى هو زيادة الفعالية الاجتماعية للفـرد»..

والبيئة .... بعد الإنسان - بما يكمن فى أعماقها وبما ينمو فوق سطحها، تؤثر تأثيرا بالغاً فى قيام حضارة وبقاء أخرى ... وللبيئة دورها الجمالى ، عن طريق الضمير الجمالى الذى ينبثق من المكان

بخصائصه، ويتفاعل مع الإنســان فيرتبطان -معا- برباط وجدانى.

ولقد قامت معظم الحضارات حول الأنهار وفى مناخات معتدلة وكان ذلك لازماً للتفاعل الحضارى، مما يجعل أمامنا (شرطاً مكانياً) فى عملية التحضر، وهو ضرورة أن يصـل التفاعل بين الإنسان والمكان إلى مستوى العصر لأن هذا يعنى مزيداً من الكنوز والكشوفات... والتسخير... والعطاء.

وكما للمكان تأثيره (فللزمن) تأثيره أيضا. وبتطبيق عنصر الزمان فى عملية تطورنا الحضارى يلزمنا السير بمعدلات النمو الزائدة، عبر مراحل التطور، حتى نسد الفجوة التى تفصلنا عن حضارة العصر...

- من مرحلة التكدس التى تتميز عادة بالبطء.

- إلى مرحلة الاستيعاب ... للجوهر.

- إلى مرحلة الإبداع، حيث تجد الأمة نفسها وجها لوجه مع الينابيع الأساسية للإبداع الإنســانى المعاصر . وتسرع حينئذ مسيرتها رويداً رويداً ... فكلما حققت نصراً زادها ذلك ثقة ورسوخاً ... فإذا واصلت العمل مدركة لكل مقومات ومتطلبات قيام الحضارة فإنها ستتصل لا محالة إلى مرحلة الإبداع، حيث يصبح معدل نموها «أسيا» متزايدا ونعنى بالنمو «الأسى» هنا أن يحدث تطور سريع ومبدع فى فترة زمنية قصيرة نسبيا إذا قيست بمقدار التطور والنمو الذى حدث خلالها..

وأخيرا .. يعرج الباحث على مؤثر آخر فى رحلة الإبداع الحضارى، بعد الفكر والزمان والمكان ... إنه تأثير النموذج البشرى فى المسيرة الحضارية ..

فعن طريق عودة الأمة إلى الصفحات المشرقة من تاريخها تستطيع الأمة أن تكسب القوة والمناعة ضد أمراض المواجهة الحضارية، وأيضا فإن النموذج البشرى الفردى أو السلوكى العام يستطيع أن يجعل مشوار التحضر واثق الخطا عميق المردود... قادراً على الفهم البصير للحاضر بأحداثه ومنجزاته، والمستقبل بتطلعاته، وآماله.

ومن خلال نموذجين بشريين، أحدهما فردى، والآخر جماعى تمثل فى الجماعة المؤمنة كلها...

من خلال (سلمان الفارسى) كنموذج للسعى الدؤوب نحو الحضارة الحقة، وتخطى كل العقبات الحضارية حتى الوصول إلى مرحلة ثبات الإيمان أمام سائر العقبات...

ومن خلال (موقعة بدر) التى مثلت منعطفا خطيرا فى التحدى بين بقايا حضارة جاهلية متهالكة، وحضارة إسلامية تعيش مرحلة الميلاد، وما ضربه الرسول والمسلمون فى هذه الموقعة الخالدة الفاصلة من مواقف العظمة، ومشاهد البطولة، وأسلوب القيادة ومدى تجاوب الجماعة مع قائدها .. والتضحية فى سبيل المبدأ والحضارة الجديدة بكل قيم الحضارة المتهالكة وموروثاتها وعلاقاتها وموازينها .. نقول: إنه من خلال هذين النموذجين نجح المؤلف فى أن يعطينا من خلال (الحركة الواقعية) النموذج الذى كان تجسيداً حياً للمبادئ النظرية التى قدمتها حضارتنا الإسلامية فى هذا الطور من أطوار المبعث.

وإن حضارتنا لقادرة دوماً على إعطاء النماذج، وتقديم الغذاء الحضارى الكافى للجماعة المؤمنة خلال رحلتها فى التاريخ.

الفصـــــل الثانــــى

موقف الفكر الإسلامى المعاصر من الحضارة الحديثة

توطئـــــــة :

إن اللقاء بين حضارتين فى بعض منعطفات التاريخ عملية من أخطر العمليات التى يمر بها موكب البشرية الطويل.

وعندما لا يكون اللقاء متكافئا، فإن القضية لا تحتاج إلى معاناة فى البحث، فغالبا ما تكون النتيجة معروفة، وهى انسحاق الحضارة الضعيفة تحت وطأة الحضارة القوية... وحسب الضعيفة أن تترك بصمات على جسد الحضارة الغالبة، سواء كانت هذه البصمات ظاهرة أم غير ظاهرة.

أما إذا كانت الحضارتان قويتين... فإن البحث - فى هذه الحال - يحتاج إلى عناء ودأب ورؤية نافذة... وقد تكون عناصر القوة مختلفة، ولكن المهم أن تكون ثمة شروط مؤهلة للبقاء والصمود فى كلتا الحضارتين، بحيث تتحقق فرصة كافية للصراع، ولا تهزم إحدى الحضارتين فى نهاية الشوط - ولو بعد خمسة قرون - كما سقطت حضارة روما فى رأى جيبون، مؤرخ سقوطها الكبير!!

ولا يستطيع إنسان أن ينكر أن (الحضارة الأوربية الحديثة) حضارة من أقوى الحضارات التى شهدها تاريخ الإنسان على هذه الكرة الأرضية.

وعلى الرغم من أننا ندرك أن لكل حضارة (عناصر قوة) ولربما لم تستطع حضارة أوربا أن تصل إلى ما وصلت إليه بعض الحضارات السابقة حتى فى المجال العلمى البحت... كفن المعمار وعلم التحنيط عند الفراعنة... ومع ذلك فمما لاشك فيه أن الحضارة الأوربية - فى جملتها - قد تجاوزت كل الحضارات فى المجال العلمى والمادى بآماد

طويلة.

إنها الحضارة التى جعلت العالم يبدو (قرية صغيرة) بفضل وسائل المواصلات والإعلام اللذين بلغا شأوا بعيداً لم تحلم به أكثر الحضارات.

وقد التقت هذه الحضارة التقاءها الأخير بالحضارة الإسلامية على مشارف القرن السادس عشر الميلادى، بعد أن كانت قد هزمت أمام المسلمين قبل ذلك، وبعد أن كانت قد جلست - فى أدب تارة وفى دموية تارة أخرى - عند أقدامهم تتلمذ عليهم فى العلوم والآداب والفنون، سواء فى الأندلس(٩٢-٨٩٨هـ - ١٤٩٢م) أم فى عدد من جزر البحر الأبيض المتوسط، مثل صقلية وكريت ورودس وقبرص وبعض مدن جنوب إيطاليا، أم فى الحروب الصليبية التى استمرت قرابة قرنين من الزمان.

وقد أدركت أوربا - من هذه اللقاءات - أنها أمام حضارة قوية ذات بناء روحى ومادى قوى، وأدركت - كذلك - أن البناء النفسى والفكرى للأمة المسلمة هو السر القوى فى صمودها التاريخى، وفى إفلاتها من محاولات الإبادة التى تعرضت لها - غير مرة - على يد التتار والصليبيين.

فلما كان لقاؤها الأخير بهذه الحضارة على مشارف القرن السادس عشر كان لديها وعى تاريخى يكفل معرفة خصمها الذى سبرت غوره فى الحرب والسلم على السواء...

وبينما كان هذا حال الحضارة الأوربية - كان الأمر على العكس بالنسبة للحضارة الإسلامية ومفكريها. فهؤلاء المفكرون المسلمون فى مجموعهم على امتداد القرنين اللذين بزغت فيهما - بوضوح تام -

شمس الحضارة الأوربية، (وهما القرنان التاسع عشر والعشرون) كانوا بعيدين - إلى حد كبير - عن معرفة الخصم الذى يقاومونه، وعن معرفة أسرار قوته، وعناصرها. ولم يحاولوا باتفاق ولو نسبى - أن يدرسوا الخصم، وصولا إلى معرفة أفضل أساليب مقاومته. وقد جنحت مواقفهم بالتالى إلى رافضين لهذه الحضارة بالمرة، وخيل إليهم أنهم قادرون على دفن آذانهم وأعينهم وبقية حواسهم فى الرمال، وعدم الاعتراف بهذه الحضارة التى يعتبر من أكبر خصائصها قدرتها على الدخول إلى كل بيت... والنفاد من كل هواء... وللأسف فلا تزال بقية من هؤلاء موجودة حتى الآن !!

وعلى النقيض منهم هناك آخرون راحوا يأخذون الموقف المقابل فيهبطون إلى قاع الحضارة الأوربية مغلقين اذانهم وأعينهم - بطريقة مختلفة - عن كل دعوة للنقد أو التمحيص... لقد قبلوا الحضارة الحديثة بالجملة كما رفضها الاخرون بالجملة.

وهؤلاء وأولئك مخالفون لشروط الاحتكاك الحضارى، وهم غير واعين بأبجديات الصراع الذى يقتضى اللقاء بين حضارتين الالتزام بها. إذ إن الرفض الكامل والقبول الكامل إنما هما معا (غيبة) للعقل وعجز عن (الاستجابة للتحدى) وعن (الحوار الحضارى)، وكلاهما مغفل لعنصر (الحداثة) التى تعطيها الحضارة الأحدث ولعنصر (التجربة) التى تعطيها الحضارة الأقدم.

وإذا كان التاريخ فى مسيرته الحضارية يترك على جانبى المعارك والصراعات والإيجابيات والسلبيات بعض القيم والمعطيات التى يجب أن تستقر فى وعى المجموع البشرى، وترقى إلى مستوى (الثوابت) فإن الرفض الكامل أو القبول الكامل يضيع على البشرية هذه الحصيلة التى تدفع البشرية ثمنها غالياً... ولا يجوز أن تهدر بحال من

الأحوال!!

وبالتالى فإن هذين الطرفين اللذين واجها الحضارة الحديثة لم يمثلا الرد الحضارى الموضوعى... ولقد كان (حتما) - ما دام الصراع بين حضارتين متكافئتين - أن يتداعى هذان الطرفان الإسلاميان، وأن يظهر طرف جديد يحاول أن يقوم بواجب الحوار الحضارى مع الحضارة الحديثة... وإن صمود الإسلام حتى اليوم، ومع هيمنة الحضارة الأوربية منذ أربعة قرون لهو أقوى دليل على أن الحضارة الإسلامية حضارة قوية البناء، وأنها - على الرغم من إخفاق أكثر أبنائها فى مواجهة الحضارة الأوربية القوية - ما زالت قادرة على الحوار، بل إنها بدأت تأخذ - مع هذا الوضع المتردى - زمام التأثير والمبادرة الفكرية والقدرة على الإقناع...

* * *

إننا لانحاول فى هذه التوطئة أن نستوعب فصول قصة اللقاء بين الفكر الإسلامى والحضارة الحديثة منذ ظهرت أوربا على مسرح التاريخ، تحاول اكتساح الحضارات البشرية وتسعى إلى فرض صياغتها للحياة وفلسفتها نحو الغيب والكون ورؤيتها الفنية والجمالية بل ولغاتها وآدابها على البشرية كلها.

وإنما نحاول - فقط - أن نمهد الطريق لموضوعنا الأساسى وهو: (موقف الفكر الإسلامى المعاصر من الحضارة الحديثة) محددين إطار هذا الموضوع بنطاق العناصر التى تمليها طبيعة الموضوع، وهى:

١ - الفكر الإسلامى - فهو الطرف الأساسى الذى يراد التعرف على (موقفه).. وهذا الفكر الإسلامى مكون - كما نرى - من

مصطلحين : (الفكـر) - أى محصول الاجتهاد البشرى الاحتمالى وليـس الوحى اليقينى - (والإسلامى) أى الذى تتكامل له الأساسيات التى توثق نسبه الإسلامى... وبالتالى فهو ليس فكر المستشرقين، حتى وإن اتصل بالإسلام، وهو ليس فكر الخارجين عن الإسلام (المرتدين)(١) حتى ولو تشبثوا بمصطلح الإسلام وأطلقوه على أنفسهم، فالانتماء العقدى لابد وأن يتحـرك فى الدائـرة الأساسية المعتمدة.

٢ - (المعاصر)... والمعاصرة (وهى العنصر الثانى) تحدد النطاق الزمنى للموضوع فى القرن الرابع عشر الهجرى (وما يوازيه فى التاريخ الميلادى تقريبا)، وهو تحديد يعفينا من النظر فى مسيرة القرون الثلاثة التى سبقت ذلك، وهى قرون الالتحام المبكر الذى بدأ منذ القرن السادس عشر الميلادى .

٣ - الحضارة الحديثة (وهى العنصر الثالث)... ويقصد بها الحضارة الغربية بجناحيها الغربى الرأسمالى (الأوربى الأمريكى) والشرقى الشيوعى أو المادى اللادينى بعد السقوط الرسمى لشيوعيته وهو ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتى!!.

وفى هذا النطاق نعالج الموضوع محاولين أن نوجز كل الإيجاز؛ لأن التفاصيل ستبعدنا عن نطاق معرفة (الموقف) وتجرنا إلى نطاق (التاريخ المجرد) وهو ما لا يتناغـم مع قضية هذا البحث.

(١) من أمثال محمد أركون، وحسين أحمد أمين، وسعيد عشماوى، وغيرهم من الذين يتصدرون الآن لصياغة إسلام لاهوتى كنسى لاوجود له فى واقع الحياة - أى بإيجاز - يمزقون من القرآن أكثر من نصفه!!

مناطق الاشتباك :

إذا نظرنا إلى خريطة العالم الإسلامى إبان القرن الرابع عشر الهجرى، فإننا سنجد معظم هذا العالم قد سقط أمام ضربات الحضارة الغربية من النواحى السياسية والعسكرية على الأقل. فقد ضم الجزء الأكبر من شمال أفريقيا إلى فرنسا كما ضمت سوريا ولبنان، وراحت إيطاليا تنظر بعين الطمع إلى ليبيا، وتمهد لنفسها فيها بكل الطرق، وسيطرت بريطانيا على أكثر البلاد الإسلامية، وعلى رأسها مصر والسودان والهند الكبرى (باكستان وبنجلاديش) والعراق وإيران وفلسطين وشرق الأردن، وخضعت أندونيسيا لهولندا، وأخضعت روسيا ما وراء القوقاز والخانيات الأوزبكية العظيمة (بخارى وسمرقند وخيوة وخواقند) بالإضافة إلى منغوليا وأذربيجان وطشقند والتركستان، فكأن خريطة العالم الإسلامى -- كما نرى - قد أصبحت تحت قبضة الحضارة الحديثة، ولم يفلت منها إلا جزيرة العرب -- بدرجة ما - وإلا المغرب الأقصى وما وراءه -- بدرجة قلقة أيضاً... فضلا عن تركيا التى كانت نفسها تترنح آيلة للسقوط.

هذا من الناحية السياسية والعسكرية... أما من الناحية العقدية والفكرية فنستطيع القول: إن أوربا كانت تفوض الكنيسة وتدعمها فى الامتداد إلى بلدان العالم الإسلامى.... فبعثات التنصير كانت تسبق الجيوش ممهدة، أو تلحق بها موطدة. وكانت أساليب التغريب و«العلمنة» التى يحملها الأوربيون معهم إلى كل مكان وصلوا إليه تمتد إلى مناهج التعليم وأساليب التثقيف وإلى الاقتصاد والحياة الاجتماعية والثقافية.

ومن الغريب أن العالم الإسلامى أمام هذه الهجمة لم يكن يملك أدنى أدوات المقاومة، اللهم إلا القوة الكامنة فى دينه وإلا الماضى العظيم

المنساب فى كيانه والذى يمنحه وقود الاستعلاء على الأزمة الخانقة المحيطة به، وإن لم يكن يحسن الإفادة منه أو تمثله فى حاضره الأسيف.

لقد كانت حالة هذا العالم أسوأ حالة، يصورها لنا الكاتب الأمريكى المعروف (ستودارد) فيقول : (كان العالم الإسلامى قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ، ومن التدنى والانحطاط أعمق دركه، فاربد جوه وطبقت الظلمة كل صقع من أصقاعه ورجا من أرجائه، انتشر فيه فساد الأخلاق والآداب، وتلاشى ما كان باقيا من آثار التهذيب العربى، واستغرقت الأمم الإسلامية فى اتباع الأهواء والشهوات، وماتت الفضيلة فى الناس، وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة، وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال.

وأما الدين فقد غشيته غاشية سوداء، فألبست الوحدانية التى علمها صاحب الرسالة الناس سجفا من الخرافات وقشور الصوفية، وخلت المساجد من أرباب الصلوات، وكثر عدد الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين، يخرجون من مكان إلى مكان يحملون فى أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات).(١)

وهكذا لم تكن لدى العالم الإسلامى أسلحة سياسية ولا عسكرية ولا فكرية ولا عقدية... وكان عليه إما أن يستسلم فيسقط فى حضيض الهزيمة الحضارية المدمرة، وإما أن تظهر فيه أقلية مبدعة وصفوة مجاهدة تستعين بالإسلام فى صد هذه الغارة التى امتدت إلى ساحة العالم الإسلامى كله، وعليها أن تكشف عن جوهر الحضارة الإسلامية الصحيح أمام التحديات الكبيرة.

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ـ جـ١ ـ ص ٢٥٩ (لوثروب ستوردارد).

المنهجان المرفوضـان وتأثيرهما

ذكرنا أننا نرفض المنهجين اللذين وقفا من الحضارة الأوربية موقفاً مبدئياً صارماً فرفضوها بالجملة وطعنوا فى كل ما قدمته.. أو قبلوها بالجملة وزينوا كل سلبياتها ودافعوا عنها... وحولوا مباذلها القاتلة محاسن فاضلة.

والمنهجان معاً أضرا بالأمة الإسلامية غاية الضرر؛ فقد كان منهج الرفض الكامل للحضارة الأوربية المسئول الأكبر عن تخلف المؤسسات الإسلامية التعليمية منها والاقتصادية والإعلامية، بل وكان سببا فى سقوط الخلافة العثمانية، وجمود كثير من مرافق الحياة الإسلامية على امتداد العالم الإسلامى كله، وليس ما عرف فى تركيا أو مصر أو الجزيرة العربية إلا نماذج لهذا الموقف الذى وجد له متعصبون فى معظم البلاد الإسلامية... ولقد كانت تركيا هى أكثر الدول الإسلامية مواجهة للخطر الأوربى، وكان عليها أن تغير نفسها مواجهة للخطر الزاحف عليها، واستيعابا لنقاط قوة الخصم وللمستحدثات الحضارية الضرورية للمقاومة (ولكن زعماء الأتراك الدينيين الذين كانوا صفرا من روح النفقه والاجتهاد للتعاليم الإسلامية الحقيقية - أغمضوا عيونهم عن كل ذلك التغيير والانقلاب، وأكرهوا الأمة التركية على أن لا تخرج - ولو خطوة - من حدود البيئة التى سادتهم منذ سبعمائة عام. وتبع السلطان سليم السلطان محمود فى الحكم، فحاول الإصلاح، ولكن العلماء والمشايخ خالفوه مرة أخرى، وبتذليل كثير من العوائق والصعوبات تمكن السلطان فى سنة ١٨٢٦م من ترويج التنظيم العسكرى الجديد فى تركيا. ولكن العلماء لم يزالوا ينادون بأن كل تلك الإصلاحات بدعة سيئة يراد بها تخريب الإسلام، وأن السلطان قد مرق من الدين، وأن التطوع فى الجندية من هذا الطراز الحديث مفسدة

لإيمان المسلمين.

وكات هذا هو الزمان الذى أحس فيه أهل الفكر من الأتراك بتخلفهم وهوانهم القومى)(١).

لقد كان من جمودعلماء الأتراك (حتى فى القرن العشرين الميلادى) وضيق تفكيرهم ونزوعهم إلى القديم وإبائهم الأكيد لمسايرة الزمن ما عهد فيهم أيام السلطان سليم، فكانوا يقولون حتى الآن إن باب الاجتهاد قد انغلق بعد القرن الرابع، والحال أن باب الإلحاد الصريح كاد ينفتح أمام أعينهم، وكانوا لا يزالون يدرسون ويدرسون فى الفلسفة والكلام تلك الكتب التى كان الزمان قد خلفها من ورائه منذ خمسمائة سنة، وتقدم إلى الأمام، وكانوا يلقون على الناس مواعظهم، من ذلك التفسير القرآنى وتلك الأحاديث الضعيفة التى لا شك فى أن الناس كانوا يستمعون إليها بشوق قبل مائة سنة، ولكنها جاءت تنفر فى هذا الزمان العقول الجديدة لامن أولئك المفسرين والمحدثين فحسب بل من القرآن الكريم والحديث النبوى نفسه، ثم إنهم كانوا مصرين على أن تنفذ بين الأمة التركية تلك القوانين الفقهية التى هى مكتوبة فى مجموعات الشامى وكنز الدقائق، وإن كانت نتيجة هذا الإصرار أن يتملص الأتراك حتى من اتباع القوانين الأصولية المنصوص عليها فى القرآن والسنة).(٢)

وهكذا كان تأثير المنهج الأول (الرافض) مدمراً، ولعله فى تصورى - وكما أوضح العلامة أبو الأعلى المودودى - المسئول الأول عن سقوط الخلافة العثمانية، إذ هو السبب الداخلى الذى يسبق فى المنظور الحضارى العوامل الخارجية.

(١) نحن والحضارة الغربية لأبى الأعلى المودودى ص ١١٢ طبع بيروت.
(٢) المرجع السابق. ص ١١٧

أما أصحاب المنهج الثانى ، فهم هؤلاء الذين لم تتوافر فيهم أية حصانة ذاتية أو أصالة إسلامية، بل كانوا أشبه بالمراهقين الذين تخدعهم الظواهر ولا يحاولون التعرف على سنن الله الكونية فى رقى الأمم، ولا التعرف على الأساليب الصحيحة التى تواجه بها التحديات الحضارية... ولقد بلغ من سخافة عقول بعضهم أن دعوا الأمة صراحة إلى التبعية الفكرية والروحية الكاملة للحضارة الحديثة...

ولقد صور أستاذنا الفاضل الشيخ محمد الغزالى هذا الوضع(١) حين نقل إلينا ما كتبه أحد هؤلاء ويدعى (ماجد فخرى)... يقول الشيخ الغزالى :

« لقد كتب السيد ماجد فخرى منددأ بالشيخين محمد عبده ورشيد رضا، ومفندأ رأيهما فى صلاحية النظام الإسلامى لعالمنا الحاضر آخذا على الإسلام كثيراً من نظمه الاجتماعية والاقتصادية... وليس هذا يعنينا بقدر ما يعنينا ماذا يريد الكاتب بعد تحطيمه للإسلام؟! إنه يقول بالحرف الواحد (والكلام هنا لماجد فخرى) : إنه يخيل إلينا - نحن الشرقيين - أن الاستقلال عن الغرب سياسياً يعنى الاستقلال عنه فكرياً وحضاريا وهذا - أيها السادة - وهم فاضح، فالدول الشيوعية نفسها كروسيا والصين ودول شرق أوربا ما زالت كلها عالة على الغرب فى ميدان العلم والفلسفة. ألم يكن حلم بانى روسيا الحديثة بطرس الأكبر نفسه «تغريب» روسيا فى القرن السابع عشر».

ولم تكن آثار هذا المنهج بأقل سوءاً من المنهج الأول، فإذا كان الأول قد سد الطريق أمام (الإيجابيات) التى يمكن أخذها من الحضارة الحديثة، فإن الثانى قد جلب إلينا (السلبيات) فكأن المنهجين تعاونا

---

(١) انظر كتابه الحافل بتحليل هذا المنهج التغريبى (ظلام من الغرب)

على إصابتنا بعمى الألوان و (بالخلط) فى علاقتنا بالحضارة الحديثة، فاتجه بعضنا إلى رفض الصالح، وذهب آخرون إلى جلب الفاسد... وهذا منهج حضارى غريب سيئ العاقبة، قضى على كثير من الشعوب فى التاريخ، ولولا الأصالة الذاتية للإسلام، وموقف المفكرين الواعين لكان نصيب العالم الإسلامى كله المسخ والتشويه الدائمين.

مرحلة الثقة والنضج :-

مع وضوح الأثر العميق السيئ للمنهجين السابقين، ومع تجاوز فترة (المفاجأة) التى ارتبك فى التعامل معها كثير من المسلمين الذين سقطوا فى التبعية الفكرية للحضارة الأوربية غربيها الرأسمالى أو شرقيها الشيوعى، والذين انبهروا بمنجزاتها العلمية، دون أن يدركوا أن (المنجزات العلمية) ليست إلا نتيجة، وأن الحضارة بناء فكرى داخلى ومنهج للتعامل مع الحياة والكون والإنسان وخالق الكون، ودون أن يدركوا أن الالات والمنجزات العلمية قسيم مشترك بين الناس يحتاج لشروط موضوعية خاصة، والأهم فى الحضارة - لاستمرارها وازدهارها - ليس هذا الجانب الالى المشترك والذى يمكن أن ينبغ فيه الرأسمالى والشيوعى والوثنى الهندوكى واليابانى البوذى والمسلم على السواء.. وإنما الأهم (الأسس الفكرية والأخلاقية) التى تقوم عليها الحضارة .

أقول.. مع تجاوز فترة (المفاجأة) هذه، وبداية اعتدال الميزان ووضوح البصيرة، بدأت تظهر مرحلة جديدة يمكن تسميتها بمرحلة الثقة والنضج... وهذه المرحلة قد واجهت الحضارة الحديثة بموقفين جيدين يكمل أحدهما الآخر...

فأما أولهما: فهو تجاوز مرحلة (الدفاع) إلى مرحلة (نقد

الحضارة الحديثة) فى أصولها الفكرية والأخلاقية، ليس بقصد التبغيض فيها لرفضها، ولكن لبعث الثقة فى الإنسان المسلم وحضارته من جهة، ولتوعيته حضارياً - من جهة أخرى - ليدرك الفرق بين مصطلحين مهمين مختلفين كل الاختلاف، وهما مصطلح (التغريب) و (التحديث) فلا علاقة بينهما البتة، فالأول يعنى أن غايتنا هى أن نكون أشباه الغربيين حتى فى سلبياتهم، والثانى يعنى أن (التحديث) - أى امتلاك أحدث وسائل العصر - هو الهدف سواء جاء التحديث من أوربا أم من اليابان... والأول ذوبان وتبعية، والثانى معاناة وصراع حضارى مع الخصم مع الحفاظ على الذات... وإلا فلو ذابت (الذات) فلا صراع، لأن (المقلد) يمشى على خطى (المقلد) ولا يصارعه.!!

وأما ثانيهما :

فهو موقف (البناء الذاتى) لحضارة (إسلامية حديثة) تستخدم كل معطيات العصر ووسائله وفنياته وكل ما يبيحه الشرع، وتحافظ فى الوقت نفسه على كل الأصول والقواعد الإسلامية مفرقة بوضوح بين ما هو حرام... وما هو حلال، متمسكة بدينها بوعى وإصرار وإخلاص، مؤمنة بصلاحيته الكاملة لقيادة السفينة البشرية الموشكة على الغرق، سواء فى : (العقيدة الصحيحة) أو فى (الاقتصاد)، أو فى (السياسة) أو فى (الإعلام) أو فى (الفن والأدب) أو فى (علوم النفس والاجتماع والتربية)...

وفى كل ذلك بدأت تظهر منهجها الإسلامى، وتبنى المؤسسات، وتتقدم إلى كل ناحية من نواحى المعرفة، فتؤصل الاقتصاد - بمئات الدراسات - وفق المنهج الإسلامى، بل وتبنى - ولله الحمد - مؤسسات اقتصادية إسلامية وتؤصل (الأدب) (بالإسلام) وتقيم مؤتمرات للأدب الإسلامى، وتنشئ أقساما للإعلام الإسلامى، وتستحدث

البدائل الإسلامية فى الفنون المختلفة، وتفتح باب الاجتهاد الذى أغلقته بعض العقول الجامدة (وإلا فهو مفتوح ولم يغلق) وتقدم نظريات فى التربية، وتنشئ المدارس، وتنشئ صحفاً إسلامية راقية عصرية إلى آخره.

ومهما تكن هناك من أخطاء، فإن مواصلة التطبيق كفيلة-بإذن الله- بعلاج الأخطاء... فالاختلاف بين الفكر والتطبيق مقبول فى حدود معقولة، ومع المثابرة والإصرار على محاولة الوصول إلى الأهداف الواضحة المحددة.

وفى الصفحات التالية نلقى بعض الضوء على هاتين المرحلتين الممثلتين لمرحلة (الثقة والنضج) ثم نخلص منهما - بإذن الله - إلى تقديم تصورنا لما نراه كفيلا بإقامة حضارة إسلامية معاصرة.

نقد الحضارة الحديثة :

كان لابد من إقامة هذا الجدار الواقى بيننا وبين الجيران.. فما داموا مصرين على فرض الذوبان والتبعية علينا، رافضين لكل حق وخير عندنا، مشوهين لكل أفكارنا وقيمنا، بين أبنائهم وأبنائنا - ما دام الأمر كذلك - ولا سبيل للالتقاء - فلا سبيل إلى ترك الحدود مكشوفة، ولا إلى التغاضى عن روائحهم الكريهة، وأطماعهم، ونزواتهم القاتلة....

لقد حاولنا أن نعرفهم بأنفسنا فرفضونا، وتقولوا على مقدساتنا الواضحة وافتروا عليها، ولم يتركوا وسيلة لإبعادنا عن ديننا وحضارتنا إلا اتبعوها، وعاملونا بكل عنف وصلف، ولم يسمحوا لأنفسهم- حتى وهم يستعمروننا ويتحكمون فينا ويعيشون بيننا- بأية موضوعية أو إنسانية، ولا يزالون- حتى اللحظة- سائرين بإصرار على هذا الطريق

لقد كانت فرصة احتلالهم لنا فى القرنين الأخيرين - على الأقل - موجبة لهذا التعرف على حضارتنا على نحو ما فعل التتار قبلهم، فكان الواجب الأخلاقى يملى عليهم: «أن يقيموا المراكز العلمية لدراسة القرآن الكريم والسيرة النبوية - على صاحبها الصلاة والسلام - دراسة مجردة مخلصة، وأن يوفروا وسائل الدراسة العلمية لهما بأريحية وسخاء ويشجعوا الدراسة الموضوعية التى تتحرر من رواسب الحروب الصليبية الملموسة وغير الملموسة، والأهداف والمصالح السياسية والادعائية، وتتحرر من مركب الاستعلاء (superlority, complex) الذى يكون فى غالب الأحيان نتيجة السيطرة السياسية والحكومية القومية، والذى يحول بين الدارسين وبين التأملات الحيادية والدراسات المنصفة لثروة الشعوب وللبلدان المغزوة العلمية ومعتقداتها ومسلماتها والتقدير الصحيح لقيمتها وأهميتها»(١)

لكن الواقع أنه لم يكن فى هذه المدة بيننا وبينهم إلا اتجاه واحد (one way traffic) وهو اتجاه الإخضاع والغرور والتشويه والرفض الذى تحدثنا عنه سابقاً.

ومن هنا فلم يكن أمامنا من خيار إلا أن نحمى أنفسنا، وأن نتدثر بشخصيتنا وحضارتنا، وأن نكشف لخصومنا الحضاريين نواحى الخلل عندهم، ليس من أجلهم فقط، بل من أجل أبنائنا المهددين بضغوطهم.

يقول شاعر الإسلام محمد إقبال فى قصيدته(٢) (رسالة إلى العرب): «إعلموا أيها السادة أن من ثار على شخصيته وكرامته وفقد الثقة بنفسه مات ومحى من الوجود، ومن فر من معسكره وانحاز إلى صفوف الأعداء، وتطفل على مائدتهم عوقب بالهوان والشقاء، والطرد

(١) العلامة أبو الحسن الندوى : الإسلام والغرب ص ١٨ طبع ندوة العلماء لكنؤ الهند.
(٢) ديوان : رسالة الخلود

والجلاء، إلا أنه لم يجن عدو على عدو مثل ما جنيتم أنتم على أنفسكم ولم يسئ أحد إلى أحد إساءتكم إلى أمتكم، إنكم آذيتم روح رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بصنيعكم، فهى متألمة متوجهة شاكية مستغيثة» .

«الشاعر (يقصد نفسه) عارف بمكائد الإفرنج، وما لديهم من سهام مسمومة، وحبائل منصوبة، والشاعر شديد المعرفة بهم، فقد عاش فيهم ودرسهم وخبرهم، فهو يتألم إذ يرى فى الأمة العربية من يحسن الظن بهم، ويعتمد عليهم فى بناء صرح الحياة، وفض المشكلات، فيرسل صيحته وينذرهم من المصير المظلم المؤلم»..

«مهلا أيها الغافلون !! إياكم والركون إلى الإفرنج والاعتماد عليهم، ارفعوا رؤوسكم، وانظروا إلى الفتن الكامنة فى مطاوى ثيابهم. ألا إنه لا حيلة لكم ولا ملجأ إلا أن تطردوهم عن منهلكم، وتذودوهم عن حوضكم.»..

وفى مكان آخر خلال مقطع من ديوانه العظيم (رسالة الخلود) يخاطب الشاعر إقبال (الحضارة الأوربية) فيكشف سوأتها (وهو الخبيربها) ويطلع أصحاب البصيرة والبصر على حقيقتها ويحذرهم منها... يقول : أيتها الحسناء الماكرة، أيتها السارقة (يا من تعرفين القمح ثم تبيعينه شعيرا، بسببك يبيع الشيخ والبرهمن وطنه). (العقل والدين ذليلان من مظاهر كفرك، والحب العف ذليل من أوجه دعارتك)، لقد أصبحت العلامتان المميزتان للبشرية- وهما العقل والدين - ذليلتين منكسرتين بفعل أعمالك الشيطانية، لقد جعلت الإنسان بمنأى عن النفحات الطاهرة التى تكمن فى الحب العفيف «لقد اخترت صحبة الماء والطين، لقد اختطفت العباد من أمام الله» ألا تدرين أنك جعلت الأنظار تنصرف عن الروح وعن الأخلاق السامية وجعلت هدف

الحياة اللذة الجسمانية وحدها.).

وعلى خطا شاعرنا العظيم (إقبال) تتتابع كتابات المفكرين المسلمين الذين اهتموا بتقويم هذه الحضارة، ونقدها موضوعياً، سواء في فكرها وفلسفتها التي قامت عليها أم في نتائج أفكارها القاتلة. يقول العلامة أبو الأعلى المودودي رحمه الله : (إن سنة الله نراها تتكرر اليوم أمامنا، فوبال الأعمال السيئة الذي ذاقته الأمم السالفة قد أحاق اليوم بالأمم الغربية، وذلك أنه قد أنذرت هذه الأمم بكل وجه ممكن للإنذار، فآفات الحروب العالمية ومشكلات الاقتصاد وازدياد التعطل وانتشار الأمراض الفتاكة وتبدد النظام العائلي، كل أولئك آيات بينات، لو تأملوها لعلموا أن كل ذلك ثمرة ظلمهم وعتوهم واتباعهم للشهوات وإعراضهم عن الحق. ولكنهم لا يجدون في هذه الايات ما يعتبرون به، فلا يزالون يميلون عن الحق، وإذا هم تصدوا لمعالجة ما أصابهم فلا تصل أبصارهم إلى العلة الرئيسية للمرض، وإنما هم ينظرون إلى ظواهر المرض يستفرغون جهودهم لمعالجتها، وبهذا الخطأ البين في العلاج لايزال داؤهم يستفحل كلما عولج، ومما تدل عليه الأحوال الان أن مرحلة الإنذار وإتمام الحجة قد كادت تنتهي، وقد اقتربت ساعة القضاء(١)).

لقد عانى الفكر الإسلامي من ضغط الحضارة الأوربية الكثير، فهي حضارة مغرورة لا تصغي أذنا لأي حوار، وهي تنطلق من ثوابت لديها تجاه الحضارة الإسلامية، ولا تحاول أن تغير من هذه الثوابت، وهي عامدة إلى تزييف الحقائق الإسلامية، وإلى الحديث عن المسلمين ماضياً وحاضراً بحقد صليبي موروث، وهي تقف مع كل ملل الأرض حتى

(١) نحن والحضارة الغربية لأبي الأعلى المودودي ص ٧٦، ٧٧

الوثنية والإلحادية منها ضد المسلمين....

وكان لابد لكل هذا أن يترك انعكاسه على الفكر الإسلامى... ومن هنا سنجد سيلا من الكتب الإسلامية يحذو حذو القلة (الغربية) العاقلة التى تقوم بنقد الحضارة الأوربية من داخلها وعلى رأسها (ازوالد شنجلر) مؤلف (أفول الغرب) و (الكسيس كاريل) صاحب (إنسانية الإنسان) و (أريك فروم) صاحب (الإنسان ذلك المجهول)، و(رينيه دوبو) صاحب (ثورة الأمل) وغيرهم... بالإضافة إلى (القلة النادرة) من كبار مثقفى الغرب الذين انتصروا على الحضارة الغربية فى نفوسهم وعقولهم، فانسلخوا انسلاخا كاملا وأعلنوا إسلامهم من أمثال (ليوبولد فايس) الذى أصبح اسمه بعد الإسلام (محمد أسد) والذى ألف كتاباً كان من أهم الشارات الوضيئة فى هذا الطريق بما حواه من عمق فى التعرف على (روح الغرب) وهو كتاب (الإسلام على مفترق الطريق) ومثل (المهدية مريم) صاحبة كتاب (الإسلام بين النظرية والتطبيق) ومثل (روجيه جارودى) وغيرهم... فلهؤلاء وأولئك فضل تعميق هذا المنحى فى الفكر الإسلامى، وظهور مئات الدراسات فى هذا الطريق، معظمها جاد موضوعى، وبعضها قد تشوبه شائبة العاطفة الجموح.

ولعل من أفضل الدراسات، فى الاتجاه الأول : كتابات المفكرين الإسلاميين الكبار، وعلى رأسهم العلامة محمد إقبال والشيخ عبد الحميد ابن باديس، والعلامة مالك بن نبى، والعلامة أبو الأعلى المودودى والعلامة أبو الحسن الندوى والشهيدان حسن البنا وسيد قطب وهؤلاء هم الذين تجاوزوا مرحلة (المفاجأة) التى تلقاها جيل المصلحين الرواد من أمثال جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومحمد فريد وجدى وغيرهم.. فإن هذا الجيل الثانى -فى الحق- أكثر وعيا وقدرة، وجمع أقطابه فى اتزان وشمول... بين خير ما عند (جيل المفاجأة) وبين ما

استطاعوا بكفايتهم واحتكاكهم بالحضارة الغربية - أن يحصلوه من أعماق منهجية ونظرات ثاقبة... فنقدوا الحضارة الغربية بمنهجها وكشفوا عورتها وفسادها، وعمقوا الرؤية الإسلامية الحضارية أيما تعميق.

أما الاتجاه العاطفي في نقد الحضارة الغربية، فهو اتجاه أقرب إلى الرفض، وهو لا يكاد يرى - إلا قليلا - في الحضارة الأوربية بعض الإيجابيات، وعلى كل حال، وعلى الرغم من مأخذنا هذا عليه فهو قد قام بدور في تعميق هذه المرحلة، وساعد في إقامة هذا الجدار القوى الذى كان يجب أن يقوم - ولو على الرغم منا - بيننا وبين هذه الحضارة التى تريد أن تجهز علينا وعلى ديننا، وتقضى على كل خصائصنا ومقوماتنا.

- وحسبنا أن نقتبس هذا النص التالى للدلالة على هذا الاتجاه...
- يقول مؤلفو كتاب (الإسلام وحضارة المستقبل)(١) :

«حضارة أوربا نسيج من القوة والطغيان والأثرة وحب الذات والأنانية، وقد قامت على أساس فلسفتها الاستعمارية والتفرقة العنصرية... إنها حضارة اللذة والمتعة وعبادة المرأة والمال.. وعلمها الذى تسير تحته أن الجنس الأوربى هو سيد العالم ومن عداه عبيد أو كالعبيد. وإذا كانت أوربا قد حررت الرقيق كلاما، فإنه ما زال موجودا فعلا. الرقيق موجود فى المرأة التى تبيح شعائر أوربا شراءها بالمال، وموجود فى البلاد المستعمرة التى تعيش فى منزلة أحط من منزلة

(١) د. محمد عبد المنعم خفاجى، السيدة (أمينة الصاوى)، د. عبد العزيز شرف نشر مكتبة مصر ص ٦.

العبيد فى سالف الأزمان وكل خيرات هذه الشعوب هى لأوربا، ولشعوب البلاد المستعمرة الفقر والمرض والجهل والقتل والموت البطئ الذى لا يتصور أقسى منه».

«إن حضارة أوربا حضارة الربا والقمار والمكيافيلية الشريرة، والإباحية والعلمانية والمادية، واستعباد المرأة باسم تحريرها. حضارة لا مكان لها فى قاموس المثل والقيم الشريفة».

ومع ما بلغته أوربا من قوة مادية فإنها قد انهارت روحيا وخلقيا وإنسانيا إلى الدرك الأسفل، وحسبك أنها تحرم على الرجل أن يتزوج إلا بواحدة، ومع ذلك تبيح له أن يعيش مع ألف عشيقة وبائعة لجسدها، ولا تعد ذلك منكرا دائما، إنما الإثم فى نظرها القاصر هو ما شرعه الإسلام للرجل من حرية الزواج بأربع بشرط أن يعدل بينهن: «وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة».

وأوربا فى ظلال حضارتها الماجنة تعيش فى انهيار دائم، ورعب طويل، وفزع مستمر (١) ..»..

وثمة مقالات وكتب كثيرة داخلة فى نطاق الفكر الإسلامى نقدت الحضارة الغربية بهذا المنهج... وهو موقف فكرى مهما يمكن أن يؤخذ عليه - قد قام بتعسيبه - كما ألمعنا - فى درء خطر الذوبان والغرق فى بحر الحضارة الغربية المتلاطم الأمواج.

موقف البناء الذاتى ورفض التلفيق:

من خلال التجارب الحضارية المتعددة يعلمنا التاريخ أن أخطر ما تواجهه أمة هو أن تنهزم فى فكرها ومنهج حياتها أمام خصومها الحضاريين.

(١) المكان السابق.

وعشرات من الأمم هزمت سياسيا وعسكريا ثم نهضت من جديد، ولربما أثرت بعضها فكريا وحضارياً فى المنتصرين عليها فى ميادين السياسة والحرب والاقتصاد. .فالهزيمة الحقة هى تلك التى يستسلم فيها العقل وينسحق الوجدان، وتتجه المشاعر - فى خضوع ذليل - إلى منهج الأعداء العقدى والفكرى والسلوكى.

والتقليد... فى مجال الصراع الفكرى والحضارى له حدود لا يجوز أن يتجاوزها.. إنه يشبه جرثومة مقاومة الطاعون التى لابد أن تعطى بنسبة مئوية محددة، وبشروط معينة، وإلا تحول الدواء إلى داء قاتل...

وفى مرحلة من المراحل - خلال فترتنا المعاصرة من القرن الرابع عشر الهجرى - بدا وكأن ميزان التعامل بين الفكر الإسلامى والحضارة الحديثة يميل إلى الاختلال يميناً ويساراً.. فكم من المفكرين اختل جهاز القيادة الفكرية فى أيديهم..

فاتجه بعضهم إلى محاولة تلفيقية يسارية، ونادوا بأهمية أن يكون هناك (يسار إسلامى)، ووضعوا لتيارهم هذا خصائص أسقطوها عليه إسقاطاً... وابتسروها من الحقائق الإسلامية المتكاملة.

واتجه بعضهم إلى (الليبرالية) - متجاوزين عن كثير من الفروق بين (الديمقراطية) - كفلسفة غربية ذات جذور وخصائص مستقلة - وبين (الشورى) الإسلامية، فأغفلوا الثانية، وركزوا على الأولى، وتحدثوا عنها وكأنها الطريق الوحيد أمام المسلمين.

والحق أن الاتجاه إلى إسقاط فلسفات معاصرة (مسيطرة) على الفكر الإسلامى ومنهج الإسلام، سواء كانت يسارية اشتراكية،أم يمينية ديمقراطية رأسمالية... هذا الاتجاه كله اتجاه (تلفيقى) ومن شأنه

بعثرة خطوات المسلمين، وتمزيق رؤاهم، وإبعادهم عن منهجهم الحضارى الصحيح.

والجدير بالذكر أننا لن نجد قيمة من القيم الإيجابية فى كلا الاتجاهين إلا وهى موجودة ضمن حلقات النظام الإسلامى... لكن بدرجة محددة وفى سياق معين وضمن منظومة كاملة من التشريعات والأخلاقيات... فالتكافل الاجتماعى والاقتصادى وإنصاف الكادحين ومؤازرتهم جزء لا يتجزأ من الإسلام، وتحقيق الحرية الإنسانية والمساواة أمام الشريعة بين كل الناس وهيمنة القوانين على كل الناس، وتحقيق العدل... هذه أيضاً قيم إسلامية أساسية فى النظام الإسلامى... فما معنى (بتر) بعض القيم و (التركيز) عليها على حساب قيم أخرى ؟ وما معنى إبراز هذه القيم (المنتقاة) وكأنها قيم غير إسلامية، أو على الأقل وكأنها قيم لم تتألق إلا عندما خرجت من تحت معطف اليمين أو اليسار ؟!!

وعلى أية حال... فإن هذا التيار المائل يمينا أو يساراً لم يستطع أن يصمد طويلا أمام التيار المتعامل مع الحضارة الحديثة من منطلق موقف حضارى راسخ الجذور قوى البناء، قادر على الأخذ بنسب حضارية متوازية محددة على النحو الذى تعرضه سنن الله الكونية فى التفاعل بين الحضارات.

إن التيار الذى سيطر - ولله الحمد - هو هذا التيار الوثيق الصلة بالتكييف القرآنى للحضارة، وهو تكييف يرفض - ضمنا - الصياغة الحديثة للحضارة، تلك التى تتنكر لله ولا تؤمن إلا بالمادة والمحسوس.

وعلى الرغم من أنه لا يمكن القفز الأعمى من فوق المنجزات العلمية الحديثة، فهى وسائل ضرورية لابد من استيعابها وصولا إلى حتمية (التحديث) فإن هذا التحديث لا علاقة له (بالتغريب) فليس (التغريب) هو الطريق الوحيد للتحديث... بل التحديث الإسلامى الذاتى المطلوب - فى ظل المنهج الفكرى الرشيد - هو الذى يأخذ بكل المعطيات الإيجابية فى الحضارة الحديثة، ولايضحى - فى الوقت نفسه - بالمنهج القرآنى فى صياغة الحضارة، ذلك المنهج الذى لا يتم إلا إذا تمكن المسلم من أن يقرأ القرآن كأنما أنزل عليه، وإلا إذا أخضع المسلم نفسه للقرآن، ولم يسقط على الصياغة القرآنية من واقعه المريض أو أفكاره الملفقة.

إن هذا المنهج القرآنى فى التفاعل مع الحضارة الحديثة يدفع (أولا) إلى بعث الرغبة الكامنة، والكافية لدى المسلمين فى السعى إلى استعادة حضارة الإسلام، ويدفع (ثانيا) إلى القضاء على التجزؤ وأسبابه، ذلك لأن الجهد الحضارى إنما هو جهد جماعى لا يثمر إلا إذا كان كذلك، ومحال أن يتحقق العمل الجماعى إلا بعد انصهار الجماعة فى وحدة حقيقية مترابطة، يقيها من التشاكس الذى من شأنه أن يقضى على العمل ذاته(١) .

ولئن كانت عوامل التجزؤ عديدة ورهيبة... فإن هذه العوامل لا تتسلل إلى الأمة إلا حين تعانى من فراغ فكرى، وفقر إلى مجموعة المبادئ والقيم التى تغنيها بدراية سليمة مطمئنة عن حقيقة كل من الكون والإنسان والحياة. إذ إن من شأن أى جماعة تعانى من مثل هذا الفراغ، أن تغدو هدفا لمطامع ذوى الدعوات الهدامة، التى تصطنع المبادئ والقيم، لبلوغ أمانيها وأغراضها.

(١) انظر بتصرف د. محمد سعيد رمضان البوطى : منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ص١٨٤ دار الفكر.

ولكن إذا أمكن أن يسد هذا الفراغ فى حياتها الفكرية، بقاعدة راسخة من المبادئ والمعتقدات التى تشكل قاسما مشتركا يؤمن به ويخضع له الجميع، فإن هذه القاعدة تصبح فى حياتها كالميزان الذى يحتكم إليه الطرفان، كلما اختلفا على أمر، فلا تدع شيئا من الخلافات وأسبابها تصدع بنيان الأمة أو تزهق وحدتها(١).

والعطاء (الثالث) فى مجال التعامل مع الحضارة الحديثة الذى يحققه المنهج القرآنى هو «تحقيق الاستقرار النفسى والفكرى» ويتحقق قسط كبير من هذا الاستقرار عن طريق ترسيخ المسلمات القرآنية الأساسية، كما يتحقق قدر كبير منه، فى ظل الوحدة التى من شأنها أن تأتى ثمرة لرسوخ تلك المسلمات من (جانب ثان).. كما أن رسوخ المسلمات يحول دون الوقوع فى عمى الانبهار الحضارى القاتل...

«لقد نهضت الدول الأوربية نهضتها، ودخلت عصر «البخار» الذى يشبه فى يومنا هذا عصر «الفضاء» وركبت من حياتها متن الدراية والصناعة ولكننا بدل الأخذ بأسباب النهوض الحقيقى انبهرت أبصارنا وغشيت لمرأى هذه النهضة، وكان من أهم أسباب ذلك الانبهار، انحسار أسباب القوة عن حياتنا، وانشغالنا بحال (الرجل المريض) دفاعا عنه أو تعجيلا به... ثم انتشار عقد وحدتنا بين أيدى المقتسمين والناهبين.

وكان من آثار هذا الانبهار، ذلك السعى التقليدى الأعمى وراء أوربا أملا فى بلوغ نهضة كنهضتها، وتلمس الإصلاح فى السبل ذاتها التى تلمسته منها أوربا... وأخذنا نضع الإسلام فى الميزان ذاته الذى وضعت فيه أوربا دينها... كل ذلك بدافع من مركب النقص الذى حاق بنا، والانبهار الذى غشيت له أبصارنا (٢)».

(١) المرجع السابق ص١٨٤، ١٨٥
(٢) المرجع السابق ص ١٨٨، ١٨٩

وفى اتزان فكرى واع يواجه المصلح العلامة (محمد البشير الإبراهيمى) - الرجل الثانى فى جمعية العلماء المسلمين الجزائرية - الحضارة المعاصرة، فيعلى من شأن الحضارة الإسلامية عليها ديناً ولغة وشريعة، ويدعو إلى الحضارة الشرقية التى يسميها «بداوة» (دون مواربة لفظية)... يقول المجاهد الجزائرى الكبير : « لقد جاء الإسلام بالحضارة التى لا تبيد، والمدنية المبنية على حكم الله وآداب النبوة، فكان التوحيد أساسها، والفضائل أركانها والتشريع الإلهى العادل سياجها، واللغة العربية الناصعة البيان الواسعة الأفق لسانها. وبذلك كله أصبحت مهيمنة على المدنيات كلها، ووضع الإسلام هذه الحضارة الخالدة على القواعد الثابتة مما ذكرناه»(١) .

«ومن العجائب أن هذه الحضارة القائمة الان تساندت فى تكوينها وفى تلوينها عدة لغات مختلفة الأصول، ولم تستطع أن تقوم بها لغة واحدة على حين أن العربية قامت وحدها ببناء حضارة شامخة البنيان ولم تستعر من اللغات الأخرى إلا قليلا من المفردات»(٢).

وأخيراً... يقول الشيخ الإبراهيمى :

إنى لأتمثل شبابنا باراً (بالبداوة) التى أخرجت من أجداده أبطالا، مزوراً عن الحضارة التى رمته بقشورها فأرخت أعصابه وأنثت شمائله، وخنثت طباعه، وقيدته بخيوط الوهم، ومجت فى نبعه الطاهر السموم، وأذهبت منه ما يذهب القفص من الأسد من بأس وصوله(٣)!!

إن وصول الفكر الإسلامى إلى محاط الثقة الذاتية كان ضرورة حتمية، بالنسبة لأشواط الصراع الحضارى التى قطعها فى رحلته مع

(١) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمى جـ١، ص٢٥٩ طبع الجزائر.
(٢) المكان السابق.
(٣) عيون البصائر ٢/٥٨٦.

إن هذه الحضارة لم تقدم لعالمه الإسلامى ولا للبشرية إلا السموم الأخلاقية التى ينكرها دينه القويم.

-- ومع كل تقدم تكنولوجى، فقد سخرت هذه الحضارة صنوف تقدمها فى خدمة الغرائز الدنيا والأهواء الجامحة..

- وعندما يفكر العقل المسلم فى الصياغة الأخلاقية للحضارة الحديثة يجدها صياغة لا مكان للاخرة فى نظرتها، ولا مكان للعفة والشرف والوفاء والالتزام الأدبى نحو الإنسانية فى برامجها.

إن «إعلامها» ووسائلها «التربوية» (وكتبها) و (هيكلها الاقتصادى)، وأساليبها (السياسية)، وبرامج «سباقها التسليحى»... كل هذه المجالات وغيرها مقطوعة الوشائج بالقيم العليا، لا مكان فيها لما وراء الدنيا، ولا تكتنفها الرؤى الإنسانية والأخلاقية العامة.

-إن «الصدق» الذى هو أساس الأخلاق الإسلامية والذى يعتبر تجاوزه كبيرة من الكبائر إنما ينظر إليه على أنه (سذاجة) فى المجالات السياسية، إذ «المكيافيلية» هى الدين السياسى المتبع فى أروقة السياسة الدولية.

- وإن «الرحمة» لا تعدو أن تكون (ضعفاً) فى عرف هذه الحضارة.

- وكل شئ مباح إذا ما قامت الحرب... فلا مكان أمام التسليح الحديث لرحمة شيخ أو طفل أو امرأة.. بل الأسلحة (الذرية) و(النووية) قد صممت لتؤدى وظيفتها بطريقة شمولية!!

وبإيجاز، وبعيدا عن الاستطراد، فإن المسلم يجد مبادئ قرآنه

وسلوك نبيه-عليه الصلاة والسلام-اللذين يشكلان نبراس حضارته ومقياسها يرفضان الفلسفة الأخلاقية لهذه الحضارة.

وإن أخلاقه السياسية والحربية والحضارية التى تحفظها ذاكرته التاريخية لتقدم له نماذج أرفع بكثير مما قدمته هذه الحضارة المعاصرة... وبالتالى فلا معنى لأن يترك الأعلى ويهبط إلى الأدنى.

على أن الجوانب التكنولوجية التى تزهو بها هذه الحضارة - وهو زهو فى موضعه لو أمكن لها تسخير التكنولوجيات لخدمة التطور الروحى للإنسان... هذه الجوانب لا تتعارض - أبداً - مع الفكر الإسلامى، بل هى مما يجيده الإسلام باعتباره الدين الذى يحث على العلم ويعتبره عبادة، ويسوق قرآنه نحو سبعمائة آية تدور حول العلم والفكر واللب والعقل.

وفى حكم الشريعة الإسلامية - كما يدرك المفكر المسلم - أن تخلف المسلمين فى علوم الآفاق والطبيعة والرياضيات البحتة والتطبيقية والكيمياء والطب والقضاء... إنما هو إثم يقع على مجموع الأمة باعتبار التقدم فى هذه العلوم (فرض كفاية) يقع واجبه على جميع المسلمين إذا فعله بعضهم سقط عن الباقين، وإذا لم يفعله بعضهم يأثم الجميع، والقيام به يصبح (فرض عين) على من يمكنهم القيام بواجبه.

وفى ضوء هذا فلا انشقاقية فى فكر المسلمين بين علوم الروح وعلوم المادة.. بل هما معاً ضرورتان للحياة ممتزجتان امتزاجا كاملا، بل يخدم كل منهما الآخر، ويحمى - على درب الحضارة - خطاه.

الطريق لإقامة حضارة إسلامية معاصرة :

إن الفكر الإسلامى - فى هذه المرحلة الناضجة من وعيه - قد وصل إلى منعطف خطير فى تفاعله -أو صراعه- مع الحضارة المعاصرة...

ولقد أصبح (واجبا) عليه أن يطرح البديل لسكونه الحضارى فى قرون التوقف -من جانب- والبديل لحضارة الحركة المجنونة التى تكاد تفقد معظم الضوابط والمعايير من جانب آخر.

وطريق الفكر الإسلامى -عند هذا المنعطف- ليس طريقا سهلا، كما أن ما قطعه من أشواط -خلال صراعه الطويل مع الحضارة الأوربية- لم يكن سهلا كذلك.. فالصراع -برمته- قضية وجود.

ولابد لعبور هذا المنعطف الجديد من ترسم المعالم التالية:

أولا : الثقة المطلقة فيما قدمه القران من صياغة للحياة، وفيما قدمته حياة الرسول عليه الصلاة والسلام لنا من نموذج قرانى مثالى.. ولئن كان غيرنا بالعقل المحض- مثل (مايكل هارت) قد جعل محمدا (العظيم الأول) فى التاريخ فإننا -بالعقل والإيمان- يجب علينا إذا أردنا إنقاذ أنفسنا من وطأة النموذج الغربى للحياة وإنقاذ البشرية كلها العودة بثقة كاملة إلى القرآن نتلوه كأنما أنزل علينا ونتمثل سلوك نبينا باعتباره المثل الأعلى لنا.

ثانيا : إن الفكر الإسلامى فى مواجهته للحضارة المعاصرة لم يتخلف فى المجال التكنولوجى أو المادى فقط، بل إنه تخلف فيما هو أخطر، فقد ترك العلوم الإنسانية من تربية واجتماع واقتصاد وعلم نفس وإعلام ومناهج بحث تاريخى وفلسفى وجغرافى للحضارة المعاصرة، وعاش هو يجتر ماضيه دون مواكبة للوسائل الحديثة المتطورة، ولا أمل فى مواجهة الحضارة المعاصرة مع الخضوع لنظرياتها وفلسفاتها فى هذه العلوم الإنسانية المتصلة أوثق الاتصال بصياغة الحياة وفلسفتها..

وعلى الفكر الإسلامى أن يقتحم -بالضرورة- هذه العقبة، وأن يبنى

المؤسسات الإسلامية الأصيلة - جوهرا - والمتطورة وسائل وطرائق بحث فى المجالات التربوية.. والاقتصادية (وقد قطع الفكر الإسلامى شوطاً طيباً نظرياً وعمليا فى هذا المجال) والاجتماعية والإعلامية «والسيكولوجية» وغيرها...

ثالثا : وفى ظل المعلمين السابقين : (الثقة فى القرآن والرسول) و (إقامة صرح التصور الإسلامى للعلوم الإنسانية) على المسلمين أن يدخلوا معترك السباق التكنولوجى والمادى، ونقطة البداية فى هذا الموضوع هى التقليل من (الاستيراد) إلى أقصى حد ممكن، وتشجيع الاختراع والصناعة الإسلامية مهما كانت بدائيتها، وإذا كانت الهند -كلها تقريبا- تركب سيارة (امبسادور) الهندية بدءاً من رئيس الجمهورية والوزراء وحتى المواطن العادى، مع أنها سيارة بدائية جدا بالنسبة للسيارات الأمريكية وحتى اليابانية -فأحرى بنا نحن المسلمين- بل إنه لواجب شرعى -هجر هذه السيارات المستوردة الفارهة والإصرار على أن تكون لنا سيارة إسلامية.. ثم طائرة إسلامية.. ثم أسلحة... وهكذا.... مهما كانت بدائيتها... ولا طريق للتطور الحق إلا عن هذا الطريق... أما طريق الاستيراد، فهو طريق الموت البطئ... والتبعية الذليلة، وهو ليس طريق البناء الحضارى على أية حال.

رابعاً : وبما أن الرفض وحده ليس كافيا فى علاج أية أزمة حضارية فلابد من اعتماد سياسة البدائل، فمع رفضنا لكل التصورات غير الإسلامية علينا أن نضع مكانه البديل الإسلامى «المبرمج» المخطط له، الذى يشبع سائر الطاقات ويملك الوسائل الفنية المعاصرة، ويحتفظ بمقومات التصور الإسلامى السليم.

وهذا الأمر يجب أن نطبقه فى (الفـــن) رواية ومسرحية وفيلما

وتمثيلية، وأن نطبقه فى النظريات الإعلامية والتربوية والاجتماعية ووسائل الترويح والتثقيف المختلفة، وفى المجالات الاقتصادية أيضاً.

(فالبديل) هو (الحل الحضارى) الصعب والضرورى، وأما مجرد (الرفض) فهو أمر سهل يستطيعه كل عاجز وضعيف.

خامساً : وتجنبا لعثرات الطريق الذى انحدرت إليه أوربا كرد فعل لما أرادت الكنيسة فرضه على الحياة من زهد وكبت وإرهاب، فإننا يجب أن نلتزم بمنهج الإسلام فى احترام الفطرة الإنسانية وتيسير كل السبل لتصريف الطاقات الإنسانية فى المصارف الحلال وبالتالى فيجب فتح نوافذ الحلال على مصراعيها -فى الإطار الإسلامى المتوازن- حتى تغلق أبواب الحرام التى فتحت على التجربة الأوربية بتأثير المنهج الكنسى العقيم... فعلينا تيسير عمليات الزواج وجعلها حقا للفرد على المجتمع... وتيسير «التزويج» الحلال والعمل الحلال، وإنهاء عصور القهر السياسى، وإذلال الشعوب باللقمة والسكن، وتبديد طاقاتها فى مشكلات الحياة اليومية، بينما يخطط غيرها لما بعد القرن العشرين، ولما بعد المراكب الفضائية، وحرب النجوم... بينما ينكفئ المسلم على نفسه محاصراً بهذه (المقاتل) المعاشية والسياسية والاجتماعية التى تخنق فيه طاقات الإبداع وتشل طموحاته العظيمة.

سادسا : إن أية تنمية أو عملية تحضير بدون (إنسان مؤهل قادر) هى عملية خاسرة، ولن تغنى المبانى العملاقة المجهزة بأحدث الوسائل العصرية عن (بناء الإنسان) نفسه، ولا بناء للإنسان إلا إذا كوناه تكوينا عقدياً سليماً، وزرعنا فيه الانتماء لدينه ولأمته، واحترمنا (عمره) الذى هو (وقته) فاختصرنا له الإجراءات الروتينية المدمرة، وقمنا بثورة (إدارية) فى شتى المرافق بحيث تختصر (الإجراءات) بنسبة لا تقل عن (٩٥٪) من الأساليب المطبقة حاليا.!

سابعاً : ومع إيماننا الكامل بأن الأسباب الداخلية هى أهم الأسباب فى عملية التحضير «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» فإننا نرى أنه من الحتم على الفكر الإسلامى أن يقوم بتحرير الأمة الإسلامية من قيم الجمود والجزئية والعقم وضيق الأفق التى ورثتها الأمة من بعض عصور الانحطاط والتى ضربنا لها مثلا بالذين رفضوا تسليح تركيا بالسلاح الحديث، وهو مجرد مثال توجد له نظائر بالمئات... بحيث إن الفهم (الهرمى) لحقائق الإسلام أصبح مقلوباً، فوضعت الفروع مكان الأصول فى بعض الأحيان، وأغفل التركيز على أساسيات الحياة الإسلامية كالعدل والشورى وحماية حقوق الإنسان المسلم وعمليات إبادة الشعوب الإسلامية وبيع حقوقها وكرامتها لأعدائها... بينما يتركز اهتمام بعضهم على بعض السنن والنوافل وهيئات الصلاة وحرمان المرأة من المسجد!!

وفى المقابل -وبالقدر نفسه- يجب حماية الأمة المسلمة من القيم الأغلالية الوافدة من المستغربين الذين سقطوا تحت تأثير الإشعاعات الأوربية وانبهروا بها .

فالمنهجية النقدية الواثقة يجب أن تكون (المبضع) الذى نتسلح به فى وجه القيم الضيقة، والقيم المتفسخة..

وأمامنا -بعد كل ذلك- الميزان الذى نتمسك به.. ولن نضل -بإذن الله أبدا- مهما طالت غربلتنا للماضى، ومهما تعددت مجالات صراعنا وحوارنا الفكرى مع الحضارة الحديثة...

ذلك لأننا لا نصارع هذه الحضارة -ولا نحاورها- بفكر مجرد لاقواعد له، وإنما نتعامل معها بفكر الإسلام ذى القواعد الثابتة والحوار المنطلق الرحب الذى لا يرفض الإفادة من شتى التجارب الحضارية التى تريد -بحق- أن تخدم قضية الإنسان على هذه الأرض!!

الفصـــــل الثالـــث

الأزمة الثقافية المعاصرة للمسلمين وفقه التاريخ

مناهج ردود الأفعـــال

ليس شباب الأمة -أية أمة- عضواً مقطوعاً عن سائر الأعضاء... إنه مرحلة من المراحل التى يمر بها كل المجتمع، وهو -حين يمر بهذه المرحلة- لا يعدو أن يكون عضواً -وإن كان العضو القوى- فى جسد الأمة. وعندما نحاول رصد عضو من أعضاء المجتمع، أو مرحلة من مراحله سواء كنا بصدد قضية كالطفولة أو الشباب أو المرأة -مثلا- فإننا يجب أن نكون واعين بالأبعاد الاجتماعية والإنسانية كلها، إذ ليس هؤلاء جميعاً إلا أجزاء يتبادلون نوعاً من التفاعل الذى يربط الأفراد بالجماعة..

والمنظور الصحيح يقتضى.. ونحن نعالج قضية ما أن نعطى لمجموع العوامل والقوى الفاعلة نصيبها، وأن يكون تحليلنا قائماً على أساس (البناء الكلى) الذى أفرز لنا وضعاً خاصاً تتسم به كل شريحة من شرائح الأمة..

ولقد بقيت كثير من المناهج تنظر إلى بعض الأوضاع نظرة جزئية محدودة، وتصف لها علاجاً منسجماً مع نظرتها.. فهى تحاول -فى مواجهة ما تراه مثلا- من تخلف علمى -أن توصى (بالتربية العقلية)... وفى مواجهة ما تراه من أنانية فردية- توصى بالعمل على إيجاد (الروح الاجتماعية)... وفى مواجهة الفراغ وما يتبعه من سلوكيات سلبية توصى (بملء الفراغ) ببرامج ترويحية وتثقيفية ورياضية، وهكذا يمتد العلاج متتبعاً كل حالة (مرض) أو (سلبية).. دون أن يكون لهذا الدور والتسلسل، والدور والتسلسل المضاد، أية نتائج إيجابية تسمح بمردود حضارى ملموس.

إن مثل هذه النتائج العاجزة، والتى تحاول معالجة أوضاع الأمة

الإسلامية الاقتصادية والثقافية والنفسية والاجتماعية بهذه الأساليب.. لم تصل -كما أنها لن تصل- بالأمة إلى انبعاث حقيقى..

-لقد حاولنا علاج تبعيتنا السياسية للشرق والغرب منطلقين من هذا المنظور.

-ولقد بذلنا الكثير حتى وصلنا إلى ما يطلق عليه بعضهم «الاستقلال» السياسى، الذى انتقل من كونه (ظاهرة صحة) إلى كونه (مرضاً) أبرز ظواهره التجزئة والحدود المرسومة والإقليمية الجغرافية الانفصالية..

-ولقد حاولنا علاج تخلفنا الاقتصادى بالمنظور نفسه.. فكان أن تورطنا فى نظريات لا صلة لها بنا ولا بأمراضنا الحضارية.. ولقد استوردنا بهذه النظريات دواء لاعلاقة له بأمراضنا.. لمجرد أن مرضى آخرين استعملوه، حتى إننا لم نفكر فيما إذا كان هذا الدواء الاشتراكى أو الرأسمالى قد نفع أصحابه الأصليين أم لم ينفعهم...!!

وفى المشكلات الثقافية والفنية والجمالية والنفسية وقعنا فى الخطأ نفسه، وتجاوزنا عن إدراكنا الشامل لحقيقتنا، ولظروفنا الحضارية الموصولة بتكويننا التاريخى... ورحنا نعالج الأمور بمذهب فنى نستورده من هنا أو (رؤية جمالية) نستوردها من هناك.. أو بعض مصطلحات غائمة لا مضمون حقيقى لها فى كياننا ووجداننا الشعورى نبتسرها ابتساراً من الحديقة التى أنجبتها... واختلطت فى أيدينا أنواع الأدوية حتى أصبحت مزيجا لا يصلح لشىء.. بل أصبحت هذه الأدوية داء جديداً يفسد مرحلة الخروج من الاستعمار السياسى، ويجعل أعضاء الجسد الإسلامى يهدم بعضها بعضا.. فالقلب يختلف مع العقل.. والروح تنفصل عن الكيان، والكيان الواحد صار عددا من

الكيانات المتناقضة، حتى وان بدا فى الظاهر كياناً واحداً.

القضية الأساس: معرفة البداية

خلال القرنين المنصرمين: الثالث عشر والرابع عشر للهجرة كانت الأجيال المسلمة تعيش عصرا من أشد عصورها قسوة ووطأة.. وكانت مفردات الامتحان صعبة للغاية، ولعلها كانت أكبر من المستوى الحضارى الذى يعيشه عقل الإنسان المسلم.. والغريب فى هذين القرنين أن عوامل الانهيار كانت تلتحم التحاماً كبيرا بعوامل النهوض.. فبينما كان الاستعمار السياسى والعسكرى، وما يتبعه من غزو تغريبى يجتاح العالم الإسلامى ويعرض حلولا تغريبية وعلمانية ومادية وانفصالية عن الحضارة الإسلامية، كانت خمائر النهضة الحقيقية تبرز متألقة فى عدد من المبادىء والشخصيات فى الوقت نفسه.. كما استطاع الإسلام أن يجهض الانتصار التترى العسكرى والسياسى، ويحول التتار إلى جنود للإسلام، كذلك نجح الإسلام فى أن يجهض الانتصار السياسى الأوربى، وظهرت على امتداد العالم الإسلامى حركات واثقة تفصل فصلا كاملا بين الانتصار السياسى، والانتصار الحضارى. وتقدم تصوراً (بديلا) نابعاً من التجربة الحضارية الإسلامية لكل ما يطرحه الغرب من مقولات ونظريات.. بل وترى فى التقدم الغربى العلمى و (التكنولوجى) (سيف جالوت) الذى سرقه (الغرب) من المسلمين، حين جلس تحت أقدامهم يتتلمذ على علمائهم فى قرطبة وإشبيلية و طليطلة وغرناطة وصقلية، وبجاية والقيروان والقاهرة، وفى الحروب الصليبية التى استمرت مدة قرنين، ثم جاء (الغــرب) يقتل المسلمين بهذا السيف الذى سرقه فى غفلة من أصحابه الذين كانوا يمرون بمرحلة تخدير حضارى، فى نفس قرون تفاعل الغرب مع القيم الإسلامية التى نقلها خلال احتكاكه بنا.!!

وبينما كانت فرنسا تحتفل بمرور مائة عام على احتلالها للجزائر، وكان مندوبها السامى يعلن فى الاحتفالات نعى الجزائر المسلمة العربية إلى الأبد، فوجىء العالم برجل يلبس العمامة والبرنس المغربيين يتحدى -ومن ورائه جمعية العلماء المسلمين الجزائرية- كل عمليات الإبادة الحضارية ويعلن من خلال دروس للقرآن فى قسنطينة بالشرق الجزائرى أن (الهوية) الجزائرية الإسلامية ما زالت تتحدى، وأن «شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينسب».. ولا تمر بضع عشرات من السنين من الجهاد الفكرى والدموى حتى تتحول آلاف الكنائس التى لم يتبعها -ولا جزائرى واحد- إلى مساجد، وتعود اللغة العربية اللغة الرسمية ولغة الحياة.. وتعود الجزائر بفضل حركة الثقة فى الذات الإسلامية إلى الحضارة الإسلامية..

ولئن كانت الجزائر مثلا اخترناه لبروزه، فالحقيقة أن الوعى بحقيقة الذات المسلمة كان وراء كل حركات التحرر، حتى وإن سرق الثمار بعض المعادين للإسلام الذين زرعهم الاستعمار بعد أن أحس بحتمية خروجه، وبعد أن امتلأ حقداً على الإسلام الذى قاد حركة التحرر.. فأراد أن يحول دون أن يجنى الإسلام الثمرة التى غرسها.

ومع ذلك، فإن الأمر كان -كما ذكرنا- يقوم على اشتباك عوامل السقوط بعوامل النهوض، ولئن كان المتنكرون للإسلام وحضارته قد سقطوا فى المعادلة الحضارية السليمة للتقدم، فإن بعض أنصار الحضارة الإسلامية قد سقطوا أيضاً حين راحت جماعات منهم تحاول رفض الحياة فى الحاضر والمستقبل بالجملة، وتتعامى عن التحديات الجديدة.

وأصبح الماضى -بدل أن يكون الطريق المضمون للمستقبل- يطرح -فكراً وتطبيقاً أحياناً- وكأنه البديل للمستقبل.

وعادت إلى الفكر والواقع كل أمراض الماضى تطرح نفسها -مع ثبوت فشلها- باعتبارها حلولا للمستقبل.. فعادت القومية، وعاد الجمود العقلى، وعادت المعارك الفكرية الوهمية فى القضايا الكلامية واللفظية..

وهكذا -إما لبواعث التخدير الطارئة بعد الحروب الصليبية- أو لعوامل التخدير الذى سببته بعض العلوم المحسوبة على الإسلام راحت جماعة من المسلمين تولى وجهها شطر الماضى بنظرة تكرارية، وكأنها تريد إعادة الدورة الحضارية الماضية بكل عناصرها وتحدياتها وأبطالها وحبكتها ومقدمتها ونهايتها، ولهذا فهى لا تريد أن تقف من هذا الماضى العظيم (النموذجى) -كما ينبغى- موقف الاحتذاء والتأسى والإضافة إليه، والانطلاق منه نحو المستقبل.. كلا.. بل راحت تلغى (الحاضر) وتستنكف رصد (المستقبل) ولا تلتفت حولها إلى ما يدور على الشاطىء الاخر فى غرب الدنيا من عالم جديد يطرح نمطاً جديدا للحياة وتحديات فكرية ومعاشية جديدة... بل على العكس.. وجدنا بعض الأبطال الذين اندثروا وفقدوا وجودهم، وانتهت (المشكلات) التى (أحدثوها) والمشكلات الأخرى التى (واجهوها)، وبليت «الأسلحة» التى حاربوا -أو حوربوا- بها.. لقد وجدنا هؤلاء (الأبطال) يعودون -مرة أخرى- وكأن الزمان ما زال زمانهم، وكأن الحياة قد جمدت عند أعتابهم.. مع أن نهر الحياة دافق بالحركة لا يتوقف عند أعتاب أحد.

- لقد عاد المنطق اليونانى القديم.
- ولقد عاد الماتريدية من جديد.
- وعاد الأشاعرة.
- وعاد المعتزلة.

- وعاد المرجئة.. وبإيجاز عاد (علم الكلام) كما كان يفرض طابعه (الكلامى الجدلى) على واقع لا يتحمله..

- وعادت قوافل الصوفية التى خدرت العالم الإسلامى ردحاً من الزمان..

- وعاد الفقهاء يحملون معهم -إلى جانب التعصب- تلك العوامل التى أدت إلى إهمال طريق (السنة الشريفة) الذى هو السبيل الوحيد لإدراك حقيقة الإسلام.. وليس (المنطق اليونانى) -فى الحقيقة- ولا علم (الكلام الجدلى) ولا (الفقه التعصبى) ولا (التصوف) إلا صوارف عن هذا الطريق، وتمزيقاً للرؤية، وعودة -غير حميدة- لعصور سيطرت فيها عوامل التخلف على الحقيقة الإسلامية.

السنة والنموذج القدوة:

إن أصحاب الرسول-عليه الصلاة والسلام-لم يفهموا القرآن الكريم ولا سنة النبى على أساس هذا (المنطق الصورى) ولا (علم الكلام) !! ولم يكونوا بحاجة إلى (تصوف) يعلمهم كيف يتفاعلون مع كتاب الله أو كيف يقومون الليل... كما أن التفريعات الفقهية المصحوبة بتعصب لم تكن من أركان منهجهم ولا من منهج قادة المذاهب الفقهية أنفسهم (رضى الله عنهم).. بل إن أكبر خسارة لحقت بنا هى ربط فهم الإسلام بهذه المعتقدات اليونانية أو الأصول الكلامية الجدلية المتواضع عليها عند أصحابها...

إن هذا قد أدى إلى ظهور منهج (فنى)- جديد لتدبر الإسلام وفهمه وبيان مسائله- مغاير تماما لمنهج الرسول صلى الله- عليه وسلم وصحابته الكرام(١) وهكذا.. تمخض القرنان المنصرمان عن استقلال

(١) انظر وحيد الدين خان، تجديد علوم الدين (طبع دار الصحوة بالقاهرة).

سياسى (ناقص) يكاد يفقد جدواه... إذ إنه -ولا سيما بعد بداية عصر الاستقلال وهدوء حدة العداء للغرب الاستعمارى- بدأت أفكار مفسدة تطرح بقوة.. وبدأ ميزان الحقائق يختل فى عقول الأجيال المسلمة.. وضاعت معالم الحق، ووجد متعلمو الشباب أنفسهم وسط طرق كثيرة متناقضة، كل طريق له رجاله ودعاته ونماذجه القيادية التى يطرحها، وحتى نموذج الرسول (الذى هو نموذج السنة) -أى طريق الرسول- كدرت منابع التلقى عنه، تلك الطرق التى تحدثنا عنها، فابتعد العقل المسلم عن منطقة الجاذبية النبوية، واستقطبتهم إليها (فى رحلة تيه) نماذج أخرى.

* * *

إن الإنسان المسلم ليحس خلال التناقض الذى يعيشه فى عصرنا أنه يفتقد القدوة الصالحة فى القيادات المتعددة، وتأثير القدوة فى النفوس أقوى من الأقلام و الخطب، وتاريخ المسلمين ملئ بنماذج من الرجال الأكفاء الذين كانوا منارات هدى وسبل نجاح للأمة، وعلى رأسهم الرسول القائد صلى الله عليه وسلم الذى خرج جيلا من القادة ما جاد الزمان بمثلهم، ثم كان فى تاريخ الإسلام رجال غيروا وجه الحياة وعكسوا مجرى التاريخ للأحسن، وكانت القدوة موجودة فى كل مكان فى السياسة والعلم، والحرب والدولة، فى الدعوة والجهاد... وقد دفع هذا النقص الشباب إلى أن يدرس حياة شخصيات زينها الباطل، وأوجدتها الدعاية، من علماء وسياسيين و مفكرين، كفرة ومسلمين، ولم تكن شخصية من هذه الرموز إلا ولها عداء للإسلام وحرب عليه، ولذلك يفتقد العالم الإسلامى مثل القدوة التى غيرت وجه التاريخ وحققت الانتصارات الحربية والعلمية و الأدبية، ونقلت المجتمع إلى مصاف المجتمعات التى تنتج وتبتكر، وتكتشف، وتضيف إلى التمدن

والحضارة مثل ما أضاف جيل الحضارة الإسلامية الزاهر(١) .

والشباب يعلم أن الزيف استشرى فى أوجه الحياة، وأن اليأس من التغيير يكاد يجمد النفوس الضعيفة، ومناهج الدراسة لاتجد فى حياة المعاصرين من يمثل تلك القدوة فتلجأ إلى قادة المسلمين السابقين، وربما كانت السلسلة لا تتعدى عهد صلاح الدين الأيوبى إلا قليلا، مع تعمد إهمال بعض الرموز التى غيرت من فكر الشباب واعتزازه بدينه وتاريخه وأمته وفكره، بل بتشويه الصورة الطيبة التى قدموها أنموذجاً للأجيال، ثم إبراز شخصيات كانت سبباً فى تعاسة الشعوب وتخلفها وهزائمها، الأمر الذى يقابله الشباب بالسلبية والتعجب، حيث انقلبت الموازين وأصبح الزيف حقيقة والباطل حقاً والجبان بطلا والخائن أميناً، والبخيل كريماً(٢) .

* * *

إن (السنة) (التى ندعو إليها) - أى العودة إلى طريق الرسول- لا تعنى الالتزام ببعض الجزئيات والنضال دونها، بل تعنى التفاعل الكامل مع نسق الحياة التى قدمها -بأقواله وأفعاله وتقريراته- إمام حضارتنا محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) عبر (دورة) حضارية متكاملة تنتظم سائر الحالات الإنسانية.. إنها تعنى الانغماس فى صناعة التقدم الإنسانى وفق الصياغة المتوازنة والإيجابية التى قدمها الرسول وصحابته، بحيث نجح هذا الجيل فى أن يستجيب الاستجابة المثلى للتحديات التى واجهته عندما فتح الله له فارس والروم...

---

(١) د. عباس محجوب : مشكلات الشباب -قطر- ص ٦٦.

(٢) د. عباس محجوب: مشكلات الشباب الحلول المطروحة والحل الإسلامى ص ٦٧.

والسنة -أيضاً- تعنى وجود خريطة واضحة للحياة الإنسانية التى يريدها الإسلام ووجود أهداف شاملة محددة لهذه الحياة... وذلك على العكس من الطرق الصارفة عن السنة تلك التى تنتهى إلى حصر حياة المسلم فى نطاقها، (صوفيا) كان أو (فقهيا) أو (كلامياً) بل والذود عن هذا (النطاق) وكأنه كل القضية.. والإذابة -بالتالى- لمعالم الخريطة الشاملة والمنهج الواضح والأهداف المحددة للمسلم فى هذه الحياة التى استخلف فيها، ووكل إليه أمر عمارتها بعون الله.. بل إن (الصوفية) -مثلا- تجعل الحياة لا معنى لها... وتدعو إلى (غيبوبة) اجتماعية، وتعطى قيمة (العمل) و(التغيير) و(الإبداع) فى الحياة دوراً ثانويا لا قيمة له.. بل وتدعو (الذات الفردية) إلى إماتة نفسها، ليس استعلاء على المادية والسباق الحضارى -مع القدرة عليهما- بل انسحاباً من دخول معركتيهما.. وترك مجاليهما لأعداء الحضارة الإسلامية !!

أجل.. إن البداية هى أن نتجاوز كل الصوارف، ونتفق على النموذج والإمام ونرفض البدائل، ونحترم كل من قادوا حضارتنا إلى طريق السنة، حتى وإن بدوا أمام عقول القاصرين وكأنهم صرفوا الناس عن السنة (إن صح الحديث فهو مذهبى- الإمام الشافعى)...

إن الرسول الذى رفض إسقاط النزعات الفردية الجامحة على الحقيقة الإسلامية المتوازنة، وقال لدعاة الإسقاط الفردى : (إنى لأتقاكم لله وأخشاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وأتزوج النساء...).

هو -وحده- دون كل النماذج. الجدير باقتفاء أثره والتأسى به.

إن راعى الغنم، وتاجر خديجة، وقائد بدر وأحد، والمؤتمن على أموال أعدائه، والقاضى بين الخصوم وهو يخشى أن يلحن أحدهم

فيخدعه، وزوج عائشة وأبا فاطمة وإبراهيم، ومحتسب الأسواق، والسمح اللين حين القدرة، وليس الحقود الذى يتباهى بتصفية خصومه بطريقة دموية.. والذى يجوع كما يجوع الناس، وينام على الحصير حتى يؤثر فى جنبه، وإمام الناس فى صلاتهم، ومعتكف المسجد، وحافر الخندق، وحبيب أبى بكر وعمر أكثر من نفسيهما...

هذا الرسول الإنسان الذى عاش الحياة بكل أعماقها، وابتلى بخيرها وشرها، وقدم لنا (تجربة كاملة) للإنسان الإيجابى ..الذى يحترم (الإنسان) فى نفسه وفى غيره- ويحترم الحياة (الوقت) لنفسه ولغيره.. والذى يؤمن بدور الإنسان الرائد فى الحياة.. وبدوره الفاعل فيها حتى ولو لم يكن له نصيب من الحصاد... (إن قامت القيامة وبيد أحدكم فسيلة فليغرسها) هذا (الإنسان) -الرسول- الذى عامل كل الناس وتعامل معه كل الناس باعتبارهم (أناسا) لا باعتبار هوية (طبقية)..ولا مذهبية (مادية) ولا جاه اجتماعى، ولا مركز سياسى ... ولا مصلحة شخصية.. بل وجد الجميع فى ظله المعنى الحقيقى للإنسان.. والأهداف الصحيحة للحياة الإنسانية.. هذا (الإنسان) -هو وحده- وليس أى بطل آخر فى تاريخنا، ولا أى صاحب مذهب مادى أو اجتماعى أو فلسفى نستورده من خارج إطارنا الحضارى- الذى يستحق أن نتأسى به ونترك أزمتنا له.

إن تمثل حياته «سننه»، وإن الإيمان والسعى نحو الالتزام بما تركه فينا من قيم وعبادات وتشريعات وتجربة عملية.. هى البداية الصحيحة للخروج من معترك الأفكار الضبابية، والتمزقات المذهبية والاتجاهات الوجدانية والعقلية والكلامية التى شتتت رؤانا ومزقت خطواتنا وأضاعت كثيرا من المعالم الصحيحة أمام شبابنا المثقف، من خريجى الجامعات أو من الذين تعلموا بطرق أخرى، فضلت خطواتهم على

الطريق، واتجهوا إلى الشرق والغرب، في رحلة تيه وضلال...

ولقد كان العامل الأكبر -بالتالي- وراء بروز «عصر الضباب» وهو المصطلح الذي يصح أن نطلقه على مسيرتنا في القرنين الماضيين - هو أننا سمحنا لذاتنا أن تتبعثر، وسمحنا لعقلنا أن يتفلت من جاذبية السنة، ويرنو إلى عدد من التجارب التي انبهر بأضوائها أو ببعض صور التقدم التي أحرزتها... بل إن شباب هذا العصر، والشباب الذي يعيش آثار مسيرة هذا العصر لم يجد أمامه طريقاً واحداً يمشي فيه، بل وجد كوكبة في كل شيء... : كوكبة في الاراء الاقتصادية... وكوكبة في أساليب التحرر السياسي.. وكوكبة في الآراء الاجتماعية... وكوكبة من النظريات الفلسفية التي تفسر كل منها الحياة بطريقة تتناقض مع الأخرى.

وقد ساعد على هذا الضياع أن حجم الأمة في هذه المرحلة لم يكن قويا يتحمل هذه الأدوية المتناقضة، فلكل مرحلة حضارية قدراتها على الاستجابة للتحديات... وقد كانت المرحلة تقتضي التشبث بالمنهج القادر على تحقيق الاستقرار، وتوفير الانطلاق والإبداع، وليس شرطاً أن يكون ذلك (بستار حديدي) حتى نتجاوز المرحلة -كما فعل الاتحادالسوفيتي -ولابعنف دموي- كما فعل (بسمارك) في توحيد ألمانيا -ولا بسلسلة من الحركات الدموية التي تفتقد الهوية والهدف- كما فعلت كثير من الشعوب الإسلامية التي لم تصل في النهاية إلى شيء...!!

كلا... فمنهج التحول الإنساني نحو طريق الحضارة -ولا سيما حضارة كالحضارة الإسلامية لديها الكثير مما تعطيه للعالم ومما يفتقده العالم- كان يحتاج فقط إلى المنهج الذي يتلاءم مع إنسان المرحلة، ومع طبيعة المرحلة، ومع التحديات التي تحتاج إلى استجابة تلائم

المرحلة نفسها، ويعبر -كذلك- عن التيار التاريخى والنبض الخاص والشروط الاجتماعية وطموحات الأمة نحو التميز والسبق الحضارى .

إنسان الجامع والجامعة :

ثمة مفارقة غريبة يلمحها الناظر المتعمق فى منعطفات مسيرتنا الحضارية، فذات يوم كان (الجامع) هو المسيطر على حضارتنا ومسيرتنا نحو صناعة التقدم، حتى مع سبقنا فى بناء (الجامع الأزهر) و (جامع الزيتونة) و (جامع القرويين) والمدارس النظامية..

كانت صناعة الإنسان هى الشغل الشاغل للمربين والمعلمين والدعاة والجوامع والمدارس والوعاظ .. وكما كانت الجاهلية تحتفل بميلاد شاعر لاعتبارات خاصة بها، فقد أصبح ميلاد داعية أو محدث أومفكر عملا من أعظم الأعمال .. ولم نعرف -أبدأ إلا فى عصور الهوان- تخريج الفقهاء أو علماء الكلام أو المحدثين أو الوعاظ فحسب، بل كان كل هؤلاء يتخرجون (دعاة) قبل أن يتخصصوا فى أى (فن) يريدون... بل حتى مرحلة (الفنية - الحرفية) هذه كانت شبه عيب يلحق بمن يوصم بها .. وفى ضوء هذا لم يكن العمل قرين العلم فقط ... بل كان الدليل على صحته والثقة فيه وإجازة احترامه وبقائه..

وليس أئمة الحديث فقط الذين كان يجب أن (يعدلوا)أو أن يجرحوا... بل حتى علماء الجغرافيا والرياضيات والطبيعة والتاريخ كان الطعن فى دينهم يحول دون الأخذ عنهم، ويدفع إلى نبذهم . ومع أن علماء المسلمين أجمعوا على أن تاريخ الأمم والشعوب يمكن أن يؤخذ عن أهله المتسلسلين ولو كانوا كفاراً -إلا أنهم- فى المحيط الإسلامى شرطوا العدول والثقة فيمن يسجل تاريخهم، ونبذوا من عرف بنحلة فاسدة أو ممالأة لحاكم ... ووضعوه فى مكان خاص...

والمفارقة العجيبة... هى:

ماذا حدث فى مسيرتنا هذه؟ ولماذا أسقطنا -كغيرنا من الأمم- الربط بين (العمل والعلم) وقلنا بنظرية الفصل بين السلوك الشخصى والمستوى العلمى، وأهملنا التربية وركزنا على (التعليم)، وأهملنا كذلك (التثقيف) الذى هو بمعنى التقويم (ومنه تثقيف الرمح أى تقويمه) وفتنتنا كلمة (الدرجات العلمية) وتوسعنا فى (الكم) -مع أنافشلنا فيه- على حساب الكيف... واحتفلنا فى كل عام بتخريج (أعداد) لابأس بها من الجامعات دون أن نحاول الكشف عن نسبة الـ (٩٪) من (النوابغ) التى وصلت إليها (اليابان) فى مقابل نسبة الـ (٧٪) التى وصلت إليها أمريكا...(١) ولم نسأل أنفسنا يوما: كيف جمع البخارى بين هذا المنهج الدقيق فى الاستقصاء والبحث وبين هذا السلوك القويم؟ ولا كيف كان الأئمة الأربعة نوابغ فى علوم الإسلام مجتمعة... تفسيراً وحديثاً وفقهاً وتاريخاً، بينما كانوا على هذا الإخلاص لله والبعد عن الدنايا... وخريجو (جوامع) الأزهر والزيتونة والقرويين فى الأجيال الماضية: ما النسبة بينهم وبين خريجى (الجامعات) الحديثة وجامعات الأزهر والزيتونة والقرويين فى العصور المتأخرة، بعيداً -بالطبع- عن الألقاب الكبيرة التى لم يكن يتمتع بها الأسلاف (!!)؟

إن حضارتنا لم تعرف -فى عصور تألقها- سياسة الفصل بين ما هو اجتماعى وما هو شخصى، ولا بين العلم والسلوك، ولا بين المؤهل الفكرى والمستوى النفسى والخلقى.. إن هذا (الفصل) ليس من

(١) فى بعض الإحصائيات أنه لا يدخل الجامعات فى اليابان إلا ما بين ١٠-١٥٪ من الشباب والصراع شديد فى هذا (انظر التربية فى اليابان) ص ٥٧ طبع مكتب التربية العربى لدول الخليج. الرياض- ووردت نسبة النبوغ هذه فى مرات كثيرة.

مقوماتنا الحضارية، بل إن الرسول -عليه الصلاة والسلام- وهو أسوتنا، وحياته سنتنا- ونحن نعرف عنه كل شيء، وعظمته عندنا تنطلق من أننا نعرف عنه كل شيء.. حتى أخص خصائصه الزوجية. وزوجاته التسع -اللائى يعتبرن من أظهر الأدلة على نبوته- كن يكشفن كل شيء، وقد عاش بعضهن بعده لأكثر من نصف قرن.. وتحدثن فى كل شيء.. وأثبتن أنه وحده فى التاريخ- الرجل الذى قامت أكبر الأدلة من داخل بيته وخارجه على عظمته الكاملة... (وقد أثبت فى بحث آخر لى، أن قضية زوجاته التسع من أمضى الأسلحة التاريخية فى إثبات حقيقة نبوته.. فهو الوحيد الذى كان عظيما فى بيته ومع زوجات تسع يستحيل تواطؤهن على الكذب!! على امتداد هذه السنوات الطويلة التى عشنها معه وبعده).

والسؤال ما زال قائماً وهو:

كيف نجحت (الجوامع) ولم تنجح - كما ينبغى على الأقل - (الجامعات) الحديثة - حتى الموسومة منها بالإسلامية - فى تخريج نسبة المفكرين والدعاة المعقولة؟ وكيف تعرض خريجوها الشباب لهذه السلبيات الحضارية؟

إن الإجابة تتلخص فى أن الجامعات خضعت للمنهج السائد فى عصور التخلف فتأثرت بالمجتمع ...ولم تقده - كما ينبغى - وسمحت (بالفصل) بين الشخصى والاجتماعى، والقول والفعل، والعقل والعاطفة، والكمى والكيفى... وكانت (الثمرة) هى إهمال بناء (الإنسان) ... مع أن بناء (الإنسان) هو (ألف باء) حضارة وتقدم...!!

فى مسجد الرسول فى المدينة، وفى المسجد الحرام فى مكة، وفى سائر (الجوامع) التى انتشرت خلال القرون المتتالية كان (المتخرج)

والفائز (بحق الرواية) (الذى يزعم البعض أنه الأصل لكلمة بكالوريوس) يخرج إلى الدنيا كائنا إنسانيا مختلفا عن الكائن الجديد الذى تخرجه الجامعات المعاصرة فى العالم الإسلامى...

كان خريج هذه الجامعات يخرج بشعور من المسئولية يحس معه أنه ممثل لعقيدة عظيمة وأمة ذات رسالة عالمية (حتى ولو كانت أمته فى مرحلة انهزام سياسى - وإلا فكيف تغلب العلماء على التتارالمنتصرين)، وكان يشعر بأن وراءه ماضيا متألقاً وأنه أصبح صالحاً لتمثيله وإقامة الجسور بينه وبين المستقبل... وكان يشعر بأن عليه أن يبدأ بدفع الثمن لأمته التى وفرت له وسائل التربية، ولدينه الذى أشعره بوجوده وإنسانيته، وحدد له مهمته فى التاريخ... وكانت الأهداف اليومية لا تستنزفه، إما لدينه وثقته فى ربه، وإما لأن أمته - من جانبها - كانت توفر له ظروف الإبداع والانطلاق.

أما خريج الجامعات فى عصرنا - فتبدأ رحلته مع (الضرورات) اليومية بعد تخرجه، وهو يحس بأن نبوغه يجب أن يسخر فى سبيل تحقيق هذه الضرورات، ويشعر - كذلك - بأن على أمته أن تبدأ فى تيسير ما يليق به مكانة ورفاها... وهكذا يأخذ الحقوق مرتين مرة قبل تخرجه ومرة بعدها... وتنزوى (الواجبات) فى مكان ضيق من شعوره وسلوكه لا يكاد يرى... وينزوى مع انزوائها الإحساس بالمسئولية.. وغالباً ما تخمد أيضاً جذوة الحرارة الإيمانية التى تكاد تصنعها (الجوامع) ويتألق الجانب المهنى الجدلى العقلى الذى يبرز ذاته كذات متكلمة لا كذات بناءة فاعلة...

كان الإنسان يصنع فى (الجوامع) بالسيرة والسنة القولية والعملية وبالفكر الهادف الطموح وبالعلم المستأهل لصفة (العبادة العظمى)، وبالجهاد العقلى والوجدانى عبر مجالات المجتمع والكون، وبالثقافة

الإسلامية الشاملة القوية..أما الإنسان الذى يتعلم ويحصل على مؤهل من معظم (الجامعات) فى عصور التخلف فهو الإنسان الذى درس - بحق أمشاجاً من الاداب والفنون أو الطب أو الهندسة أو الرياضيات.. لقد درس بعض منتوجات الحضارة وبعض إنجازاتها... وأكل من بعض طبيخها وقطف بعض ثمار أشجارها.

لكن إنسان (الجوامع) إنسان الفكر الإسلامى المؤمن - كان الإنسان الذى تنصهر فى أحشائه الحقائق ممتزجة بحرارة الإيمان والأهداف الأخلاقية العليا. فهو يمثل البنية العميقة التى تصنع الحضارة وتفرزها وتتبادل مع مجتمعها المتحضر التأثر والتأثير والأخذ والعطاء...

إن الحضارة التى مثلها إنسان (الجوامع) كانت تفهم مسيرة التقدم على أنها (فكر) ينتهى إلى وعى وعلم ومسئولية تجاه الحضارة الإنسانية... أما إنسان الجامعات الحديثة فيفهم الحضارة على أنها (معلومات) قد تنتهى إلى هدف وقد لاتنتهى...

وكانت الجوامع مفتوحة ليؤمها كل الناس - إن أرادوا أو ثابروا - وبالتالى كانت تخرج عقولا ورجالا يتمتعون بقدر من (الثقافة) سواء واصلوا المسيرة أو انطلقوا فى مجالات أخرى مزودين بما حصلوه.. أما الجامعات فتخرج (فئة) قد تنعزل عن الناس مدرعة بمؤهلاتها فى برجها العاجى أو قد تلتحم بالناس فى (المعلومات) المتخصصة التى استظهرتها، ولا إطار لديها للعمل الحضارى والثقافى الشامل الذى يقود إلى الانسجام ودقة الإيقاع والانطلاق، إن إنسان الجامعات لابد أن يعانق إنسان الجامع من جديد، ولابد أن يربى على الكيفية الدقيقة التى يجب أن يتعامل مع الدنيا على أساسها، ولابد أن تلتحم الاخرة بالدنيا وتتحرك الدنيا فى أعماقه نحو غايتها العليا...أى تعمير الكون باسم

الله ولله، حتى تنحو أفكارهم إلى سبيل المحافظة عليها، ثم إلى سبيل استخدامها لتحقيق المبادىء والقيم العليا(١) ..لابد أن يربى هؤلاء المسلمون على دراية دقيقة بقيمة الحياة التى تخفق بين جوانحهم، والعاقبة التى سيؤولون إليها بعد موتهم، حتى يعلموا جيدا متى يستهينون بحياتهم ويضحون بها، ومتى يتشبثون بها ويحافظون عليها، دون أن يعوقهم عن تنفيذ ذلك أى عائق.

إن هذا يعنى أن مفتاح النهضة العلمية والصناعية والانطلاقة الحضارية، لايتمثل فى علوم التكنولوجيا والمشاريع - فهذه نتيجة وليست سببا- بل ربما تغدو هذه الأسباب أعباء وأثقالا على كواهل أصحابها، إن لم تنهض بدورها على قاعدة راسخة من المعارف الإنسانية الرشيدة لا تكتفى بالتغلغل فى طوايا الفكر والعقل، بل تتجاوزها إلى أعماق النفس والوجدان، ذلك لأن الوعيين العلمى والتربوى هو الذى يحرك المصانع فى طرقها الصحيحة ويدفع الجهود التقنية إلى النتائج المرضية، ويحرس النشاطات الاقتصادية المختلفة ألا تنجرف إلى سبل الخيانة والغلول(٢) ... وإلا فمابال المعاهد والجامعات التقنية - وهى فى شرقنا الإسلامى كثيرة - لاتغنى عن أصحابها ولا عن الأمة شيئا؟ وما بال أولئك الذين أتخموا بعلومها لا تستفيد الأمة منهم شيئا؟ بل إن الأمة لاتفيدهم بدورها - فى كثير من الأحيان - حتى بمقومات الحياة الإنسانية الكريمة؟ ... وما بال معظم هذه الأدمغة العلمية التقنية تهاجر من أوطانها، إلى حيث تنتجع لنفسها لقمة عيش هنيئة (٣) ؟...

(١) بتصرف من د/محمد سعيد رمضان البوطى: منهج الحضارة الإنسانية ص ١٩٨ -دار الفكر.
(٢) المرجع السابق ص ١٩٩ ط١.
(٣) المرجع السابق ص ٢٠١.

إن الثقافة بمعناها الإسلامي الشامل يجب أن تتبوأ مكانتها في تربية الإنسان عبر الجامعات والمعاهد العلمية .. ويجب أن يكون واضحا أن السلوك الاجتماعي للفرد خاضع لأشياء أعم من المعرفة وأوثق صلة بالشخصية منه بجمع (المعلومات)... وهذا الشيء الشامل الأعم من المعرفة هو (الثقافة)... أي بتعبير آخر - مجموعة الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أساسي في الوسط الذي ولد فيه... فالثقافة - بهذا - هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته(١) عن طريق (فلسفة الجماعة) و (فلسفة الإنسان) أي معطيات الجماعة والفرد اللذين يجب أن ينسجما في كيان واحد(٢).

إن (الحرفية في التعليم) - بتعبير العلامة مالك بن نبي - يجب أن تتوارى من الجامعات الإسلامية - أي جامعات العالم الإسلامي - ويجب أن تحل محلها الوظيفة الحضارية للثقافة... أي صناعة إنسان - من خلال إطار ثقافي منسجم - يتدخل في سائر أبنية المجتمع، وينفي منها ما يجب أن ينفي، ويؤكد ما يحتاج إلى تأكيد، ويتفاعل معها كما تتفاعل الروح مع الجسد .

إننا - من كل هذا - لاندعو إلى أن يفرض أسلوب (الجامع) على أسلوب (الجامعة) فنحن نعرف - بداهة - أن العلوم العصرية تعقدت وأصبحت تحتاج إلى معامل وحقول تجريبية ومكتبات هائلة ... لكننا ندعو إلى أن تكون الروح المسيطرة على الجامعة - تطبيقية كانت أو نظرية - هي روح الجامع ... ففي الإسلام ...كلها علوم واجبة -

(١) مالك بن نبي: شروط النهضة ومشكلات الحضارة ص ١٢٥، ١٢٦ طبع دار الفكر - الطبعة الثالثة .

(٢) المرجع السابق - المكان نفسه .

مادامت نافعة - وهى تتأرجح بين فرض العين والكفاية.. إننا نريد لعلم الجامعة أن تبقى له روحه العلوية ووشائجه الأخلاقية وأهدافه الإنسانية.. إن على الجامع والجامعة أن يتطوروا معاًمستندين إلى فكرة الإسلام (١) - علماً وإيماناً - وبرامج وأهدافاً، وفى الوقت نفسه يتطور التعليم الإسلامى فى المناهج والمحتويات وطريقة الاستيعاب والاختبار، ووضع الشخصية والسلوك فى الاعتبار التقويمى، والربط بين الجامعة والجامع والمجتمع... فقد انفصل الجميع فى فترات كثيرة، كما انفصلت الدراسة فى الجامع والجامعة عن مشكلات الناس وعكفت على مشكلات الماضى البائدة... والحلول البائدة للمشكلات البائدة (!!).

إننا لا ندعو - كذلك - إلى رفض التخصص... لكننا ندعو إلى أن يكون التخصص موضوعاً فى وعاء الثقافة الشاملة، وإلى أن يكون المتخصص أهلا لخدمة الحياة وليس عالة - ومستعلياً - على الحياة.

وهكذا - فى سياق واحد - نريد إنسانا جديدا بتكوين جديد نستطيع أن نطلق عليه: إنسان الجامع والجامعة !!.

تكنولوجيا الإنسان الجديد

إن أمام جامعاتنا فرصة حضارية نادرة... فمن البدهى أن سباق جامعاتنا مع الجامعات الأمريكية والأوربية فى مجال التكنولوجيا هو سباق معروف النتائج. وبالنسبة لوضعنا الحضارى، فإن أى تقدم تكنولوجى هو تقدم مطلوب، بل إن علينا أن نقفز - لو استطعنا -

(١) انظر بتصرف د/ حسان محمد حسان: وسائل مقاومة الغزو الفكرى للعالم الإسلامى ص ١٦٦ نشر رابطة العالم الإسلامى مكة المكرمة.

أضعاف ما يقفزون حتى نصل إلى بعض ما وصلوا إليه... لكن جامعاتنا تستطيع مع ذلك أن تقدم تقنية متميزة وتكنولوجيا موجهة إنسانيا... وفى هذا المجال فإن الحضارة الغربية لن تسعى لمنافستنا...؛ لأنها قد انتهت منذ مدة طويلة من مصطلح (التوجيه الإنسانى) - بل إنها لم تعد قادرة - حتى لو أرادت- على التحكم فى مسار التكنولوجيا... لقد أصبحت التكنولوجيا هى العربة التى تقود الحصان، فإن الإنسان- لسوء الحظ- قد طور قوى تكنولوجية جديدة قبل أن يعرف كيف يستخدمها بحكمة، بل أكثر من ذلك هناك دلائل كثيرة على أن نواحى تكنولوجية بأكملها بدأت تخرج من مجال سيطرة الإنسان(١) .

وما دام قد سمح للتكنولوجيا بالنمو دون مراقبة مناسبة، فقد تصبح قوة مخربة تؤثر على العلاقات الدقيقة التى بنيت عليها المدنيات فى الماضى، وكما تنبأ الكاتب الانجليزى (أ.م.فورستر) فى كتابه (توقف الآلة): «ستسير التكنولوجيا قدما... ولكن ليس على خطوطنا التى رسمناها لها، وستتقدم ولكن ليس نحو أهدافنا».

وأكثر المسائل التى تثيرها التكنولوجيا - أساساً - اجتماعية سياسية اقتصادية أكثر مما هى علمية فى طبيعتها، أضف إلى ذلك أن التكنولوجيا غير قادرة - نظريا - على التهرب من الرقابة البشرية إلا أنها فى الواقع تسير فى طريق مستقل، لسبب بسيط، هو أن مجتمعاتنا لم تصنع بعد توجيهات وضوابط للتحكم بها بالأسلوب الفعال المناسب.

وكل المجتمعات المتأثرة بمدنية الغرب تتبع (توراة التنمية) كعقيدة، وتدور فى دائرة تشبه (حلقات ذكر الدراويش) وتقول هذه (التوراة): (أنتجوا أكثر لكى تستهلكوا أكثر ثم لكى تنتجوا أكثر).

(١) انظر رينيه دوبو: إنسانية الإنسان ص ٢٢٨ ترجمة الدكتور نبيل صبحى الطويل - الطبعة الأولى مؤسسة الرسالة. بيروت.

ولا يحتاج الإنسان أن يكون عالم اجتماع حتى يدرك أن هذه هى فلسفة مريضة... مجنونة. فلن يستطيع تسارع النمو الاستمرار طويلا، فضلا عن الاستمرار الدائم إلى ما لا نهاية. والواقع أن هذا النمو قد يتوقف فى فترة أقصر مما يتوقعه الوعى النامى بين جمهور المثقفين، والذى يعتقد أن النمو التكنولوجى بدون ضوابط يضر بصفات (الكيف) لحياة الإنسان.

وفى حديث بعنوان: (هل تستطيع أمريكا التغلب على خرافة النمو؟) كان سكرتير وزارة الداخلية (ستيوارت.ل. أودال) شجاعا عندما قال: إنه (من السهل اعتبار أمريكا التى صنعها الإنسان... كارثة على مستوى القارة) . لقد ذكر (أودال) مستمعيه: (إننا نملك أكبر عدد من السيارات وأسوأ ساحات الخردة، بالمقارنة بأية دولة أخرى فى العالم نحن أكثر سكان العالم تنقلا ونتحمل أكبر قدر من الازدحام ونولد أكبر قدر من الطاقة، وفى أجوائنا أكثر الهواء تلوثا فى العالم). ولقد نقل عن رئيس بلدية (كليفلند) قوله مازحاً: (إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أساس أننا الجيل الذى رفع إنسانا إلى القمر... بينما هو غائص إلى ركبتيه فى الأوحال والقاذورات)(١).

ففى إمكان جامعاتنا أن تركز على التكنولوجيا الزراعية — مثلا — حتى توفر القمح الذى تستطيع به شعوب كثيرة أن ترفع رأسها أمام تحكم القمح الأمريكى فى رقابها... وعندنا عدد من مئات الملايين من الأفدنة الزراعية فى العالم الثالث تنتظر منا هذا النوع من التقدم التكنولوجى.

وهناك تكنولوجيا حفر الابار لإغاثة شعوب تنكب بالجفاف، وهناك

(١) رينيه دوبو: إنسانية الإنسان: تعريب نبيل صبحى: ص ٢٢٩.

تكنولوجيا مكافحة الأمراض المستوطنة والبيئة، وصناعة وسائل الاتصال برية وجوية وبحرية... وتعليب الأسماك (وهو عمل نافع جدا وميسور)(١) وصناعة الأسلحة التقليدية... والغزل والنسيج...

إن ما تتكلفه بضع عمليات من عمليات زراعة القلب يكفى لتوفير أساليب الحياة لعدد من الملايين فى قارة أفريقيا...

وإن ما يتكلفه المكوك الفضائى الأمريكى الفاشل (التحدى) - وهو مبلغ مليار ومائتى مليون دولار - يكفى لمنع الجفاف عن أفريقيا كلها إذا ما استثمر فى توفير الميـــاه واستصلاح الأراضى وبناء مساكن للمواطنين هناك.

وبالتالى تستطيع - جامعاتنا الإسلامية - أن تقوم بعملية انتقاء وترشيد تكنولوجيين، ونمد أيدينا - باسم الإسلام - إلى شعوب كثيرة تعانى من حرب القمح والدولار والتنصير فى جانب، والتلويح بعدالة اجتماعية مادية وهمية فى جانب آخر... وبالإضافة إلى أننا سنقدم تكنولوجيا يقودها الإنسان، ويمشى فيها الحصان أمام العربة، ويرتفع فيها جسم الانسان إلى القمر، وترتفع روحه - فى الوقت نفسه - إلى السماء.

الوعي بالذات:

إن من الصعب إبداع حضارة واحدة ذات نسيج واحد بذوات متنافرة

(١) انظر حول تعليب الأسماك: التربية فى اليابان (يو شامب) مكتب التربية العربى لدول الخليج ص١٢، ١٣

لا تجمعها روح منسابة واحدة... وإنه مهما اختلفت الإيقاعات في الحضارة، فيجب أن يكون الإيقاع الأقوى هو الإيقاع الذاتي الذي يمثل الروح العامة للأمة.

والتاريخ البشرى - على طوله - يتكون من شريحتين: شريحة تميزت وصنعت حضارة نسبت إليها وأخذت بها موقعاً من التاريخ، وشريحة مرت بالتاريخ، كما تمر شتى الموجات الساكنة في الكون، فهى تابعة لأية ذات، وهى مؤهلة لعبور قنطرة الحياة تحت أى مظلة وبأى لون، وهى مطية للزمان والمكان، يشكلانها كيفما اتفق، وليس الزمان والمكان مطية لها تشكلهما هى وفق ذاتها، وبوعيها وإرادتها...

والموجات الحضارية الكبرى فى التاريخ، تلك التى لم يبق صالحا للرصد والدراسة منها غير عدد محدود يحصره (أرنولد توينبى) فى إحدى وعشرين حضارة.. هذه الموجات هى ما بقى متميزا وذا ملامح مستقلة فى موكب التاريخ الطويل.

وتحدد الأمة - أية أمة - انتماءها لأية شريحة من الشريحتين منذ البداية... أى فى مرحلة التكون والانطلاق.

ولندع الشريحة الثانية التى تمضى بلا معنى فى التاريخ، فهذه لا تحتاج إلى وقفة، ومسيرتها شبيهة بكل الكائنات التى تنتمى إلى عالم الغريزة... فهى توجه خطواتها إلى الدروب التى تحقق بها غرائزها البطنية والجنسية والفوضوية والاستعلاء الفردى الكذوب...

أما الشريحة التى تعنينا فهى شريحة صانعى الحضارة الذين يتميزون بذات خاصة، والذين تركوا بصماتهم على الزمان والمكان... هذه الشريحة - صانعة الحضارة - هى التى انطلقت وفق فقه خاص للحضارة، واشتبكت مع الزمان والمكان فى معركة إثبات الذات... فهى

تستثمر كل ثانية من الوقت، وهى تسخر كل ذرة من الأرض، وهى تصارع الزمان والمكان بسلاحين قويين: سلاح الروح وسلاح العقل ... ولروحها وعقلها فقه معين تجاه الكون والتاريخ الأكبر والمجتمع الأصغر. ولا يعنى هذا أن هذه الشريحة المسلحة بالروح والعقل مجردة من الغريزة... بل جوهر القضية هو:

لمن حق القيادة ؟

فعندما تقود الروح والعقل يفرضان على الغريزة وجوداً موجهاً منظماً... وعندما تقود الغريزة تكسح الروح والعقل من طريقها بأسلوب ثورى عنيف !!

والتحدى الذى يواجه أية مسيرة حضارية هو تحديد مسئولية (القيادة لمن؟) وإزاحة الحواجز التى تحول دون بروز القيادة المختارة...

وهنا نجد أنفسنا أمام المسئولية المباشرة للجامعات ومراكز الأبحاث والمساجد والمواقع المختلفة للتأثير من مدارس ومعاهد ووسائل إعلام...

ويتحدد الإطار الذى يتحرك فيه كل هؤلاء نحو الهدف الأسمى، وهو تولية القيادة لصاحبها وفق العناصر الأساسية المكونة (للذات) تلك التى تحددها الأمة من خلال مسيرتها فى الزمان، ومن خلال القيم الإنسانية والرؤى الكونية المزروعة فى المكان...

وبالنسبة لنا - نحن المسلمين - فإننا إذا اتجهنا إلى المكان والزمان للبحث عن ذاتنا، فإننا لن نجد إلا الحضارة الإسلامية، هى التى وضعت بذورنا منذ خمسة عشر قرنا، واقتلعت كل الأعشاب الضارة التى تهدد بذورنا منذ خمسة عشر قرنا، وأبقت من القديم كل ما كان فيه

صالحاً...

وأذكر أنى كتبت شيئا ما منذ عدد من السنوات نشر فى مجلة سعودية(١) أقول فيه لمن يسألنى عن (عمرى): إن عمرى خمسة عشر قرناً... إننى أبداً لم أحس وأنا أتعامل مع الحياة أننى ابن خمسين عاماً... بل إننى لأشعر بأن شجرتى وشجرة كل مسلم... تمتد جذورها فى أعماق مكة والمدينة ودمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وبجاية والقيروان... منذ تلك السنة الفاصلة فى الزمان.. سنة نزول القرآن، وبروز المنعطف الجديد فى التاريخ: العصر القرآنى.

إن أركان ذاتنا تحددها هذه القرون عبر التفاعل الذى تم بين القيم القرآنية والصياغة القرآنية للحياة، وبين التطبيق البشرى — عبر مراحل تاريخية تواصل فيها التاريخ تواصل الكائن الحى فى وجداننا، وعبر أطر جغرافية وبيئية مختلفة... وهكذا فالتاريخ الحى جزء من ذاتنا لا ينفصل عنها.. ونحن امتداد لقيم تاريخية وضعها رجال-- نحس بقرابة شديدة بيننا وبينهم.

إن العقيدة الإيجابية جزء من ذاتنا... فجذورنا تشهد بأن عنصر الإيمان أصيل فى ذاتنا الشرقية الإسلامية(٢) ... إننا — دائما — فى رؤانا الكونية كنا ننطلق من الإيمان... ولو أننا حافظنا معه على (العقل) لكان لمسارنا التاريخى تطور آخر. وفى تاريخنا كان النصر والهزيمة مرتبطين بالإيمان وعدمه... فحالة وجود التوجيه الإيمانى الملتحم بالعمل والحركة هى حالة النصر... وليس عصر النبوة، ولا

(١) مجلة التضامن الإسلامى (مكة).

(٢) انظر هذا البحث القيم للدكتور حامد بدر. حول دور الدين الإسلامى فى نظام دوافع وحوافز العمل لأعضاء هيئة التدريس (مجلة العلوم الاجتماعية) العدد ٤ مجلد ١٣ - الكويت

عصر الراشدين - فقط - هو ما يعطينا هذا المؤشر.. فظهور كل تيار نصر مرتبط - دوما - بوجود (العز بن عبد السلام - أو - المنذر بن سعيد البلوطى - أو عبد الله بن ياسين - أو أسامة بن المنقذ - أو رجاء بن حيوة - أو أسد بن الفرات (القائد الفقيه) أو ابن تيمية - أو محمد بن عبد الوهاب - أو عبد الحميد بن باديس...) هؤلاء الذين كانوا يعطون لقضية التغيير روحها التى تنتصر بها.

والعقيدة الإيمانية روح تنساب - ويجب أن تنساب - فى كل ما يتصل بذاتنا فكراً كان الأمر أو عادات أو تقاليد.. فلسفة أو اجتماعاً أو اقتصاداً... شريطة أن يكون الإيمان الإيجابى وليس الصوفى السكونى.

والوسطية والتكاملية بين العناصر يمثلان عنصراً - أيضاً - من عناصر ذاتنا... فنحن أمة لم تحب الطغيان يوماً... لابين المادة أو الروح، ولا بين المرأة أو الرجل، ولا بين الفرد والمجتمع. بل من أخص خصائصنا - الذاتية - الرغبة فى تجنب الإفراط والتفريط، ومحاولة التوفيق بين العناصر.. ولعلنا الأمة الوحيدة التى حافظت على وفاق عجيب بين العلم والإيمان فى تاريخها. ومع تطور العلوم تطوراً مذهلا فإنها لم تجد نفسها بحاجة إلى فلسفة إلحادية أو مادية للمعاصرة، بل رأت فى الإيمان أفضل وسيلة للتحديث ولضبط الوسطية فى التحديث نفسه، ولبقاء التكنولوجيا تحت الهيمنة الإنسانية .

إن لكون (العلماء ورثة الأنبياء) فى حضارتنا معنى عظيما لم نقف عنده.. فهذه التبادلية والتكاملية بين الوحى والعقل هو أمر جديد فى التاريخ... وهو إحدى هدايا الحضارة الإسلامية للإنسان، وهو جزء من ذاتنا الإسلامية التى تشعر بتآزر كامل بين الوحى السليم والفطرة

السليمة.

وذاتنا.. ذات متفتحة.. فنحن دائما نقع فى مناطق تشتبك مع حضارات العالم وطرقه الرئيسة ... ودينا «رحمة للعالمين» وللناس كافة ... ونحن فيه مثل كل الناس .. لسنا شعبا مختاراً إلا فى حدود قيامنا بالرسالة والأمانة .. ولو حملها غيرنا لكان أفضل منا «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» ... وهكذا فنحن ذات بلا عقد، وليست لنا قضايا حقد مع العالم، بل من طبيعتنا التسامح ... وندين العنصرية بكل معانيها الإنسانية والقانونية ...

وبالتالى فليس لنا - كمسلمين - فلسفة قومية تجاه الإنسانية، ولاحتى فلسفة طبقية (بالمعنى الطبقى الجدلى) ... ولسنا نملك قيماً تعطينا (استعلاء عنصرياً) ... ومن الغباء أن يحاول بعضهم دعوتنا إلى الانفتاح - أو الإنسانية - طريقا خادعاً لقتل ذاتنا والذوبان فى الاخرين ... أى فى الشريحة التى لا معنى لها فى التاريخ إلا المعنى الغريزى .. كلا ... فنحن أمة متميزة ... ولنا ذاتنا التى نؤصلها ... ونوجهها لخدمة الإنسان ودعوته إلى الحق ... وإن كنا - فى نفس الوقت - حريصين على أن لا نذبح (ذاتنا) من أجل ذوات أخرى تموه علينا بكلمات الإنسانية والانفتاح والعالمية ... وهى أشد ما تكون (عبادة) لذاتها، وقتلا لذوات الأخرين بكل ما تستطيع من أسلحة، ومن أبرز أسلحتها هذه الدعوة الكاذبة للإنسانية والعالمية - وليست الإنسانية والعالمية فى رأيهم ... إلا (ذاتهم) العنصرية.

* * *

وفى الطريق لتحديد معالم الذات الحضارية للإنسان المسلم قد نجد معالم أخرى ..لكن المهم - هنا - أن تأصيل هذه المعالم وغرسها، وصياغتها صياغة علمية تاريخية، والانطلاق منها نحو إقامة منهج

حضارى مستقبلى يقوم على كتابنا الكريم وسنة نبينا اللذين آمنا – بحق – بضرورتهما لوجودنا – هذا التأصيل العلمى (لذاتنا) و(لرسالتنا) ... هذا الانطلاق وهذه الصياغة واجب أساسى من واجبات المؤسسات العلمية العليا، وهو واحد من أفضل ما يمكن أن تقدمه هذه المؤسسات للإنسان المسلم، ولاسيما فى هذه المرحلة الضبابية من تاريخنا.

الثقافة الإسلامية والانتماء الحضارى:

حين نعالج قضية من القضايا يجب أن نقوم – ابتداء – بتحليل مفردات القضية، ثم نعيد – بعد اجراء الفحوص الواعية لتلك المفردات – بناء هذه المفردات – مرة ثانية – فى عملية تركيب كلى..

وفى ضوء التصور المحدد للمفردات الاصطلاحية وحدود كل مصطلح، ثم فى ضوء المضمون الكلى للقضية بعد إعادة بنائها – نستطيع أن نمضى فى معالجة القضية، ونحن مسلحون بفهم محدد، وبمصطلحات واضحة فى وعينا، وقدرة على التعامل الواضح المحدد مع الاخرين الذين نتجه اليهم بالحديث...

ومصطلح (أساليب) – مثلا – (ومفرده أسلوب) يعنى – دون اللجوء إلى كتب اللغة – الطرائق التى يمكن أن تتبع فى التعبير عن الأفكار، ومع أن الفكرة قد تكون واحدة إلا أن الأساليب قد تختلف من شخص لاخر فى التعبير عنها.. والأسلوب وثيق الصلة بالشخصية الفردية وبقدراتها الخاصة وبخلفياتها الثقافية، كما أنه وثيق الصلة – بدرجة عامة – بالمصطلحات الأساسية الشائعة فى القضية المعالجة وهى مصطلحات مهنية تتصل بالبنية الأساسية للقضية، ولايمكن لأى باحث تجاوزها، وإن أمكن – بالطبع – توجيهها...

وفى موضوع كموضوع (نشر الثقافة الإسلامية) – بصفة إجمالية

- ونشرها بين الشباب - بصفة خاصة سوف نجد أن ثمة قاموسا محددا لابد أن نتعامل معه ... وهذا القاموس يتصل ببيئة الثقافة الإسلامية ومصادر أساسياتها الفكرية والتطبيقية (إذ الثقافة الإسلامية فى مفهومنا تنظير وحركة فعل حضارية) وقد نجد هذا القاموس مشتركا بدرجة كبيرة بين دارسى قضايا الثقافة الإسلامية، بدءا من حدود الانتماء - بالأصل - على مستوى سيد قطب (رحمه الله) وسعيد رمضان البوطى والشيخ محمد الغزالى ويوسف القرضاوى - مثلا - وحتى حدود الانتماء الطارىء عن رضا واقتناع مع تضاد الخلفية الثقافية ... كما فى مثال محمد أسد (ليوبولد فايس)...

أما فى حالة عدم الانتماء، أو اللجوء إلى قواعد انطلاق ثقافية ليست إسلامية أو أصيلة، بل مزيفة ومحاربة للثقافة الإسلامية فإننا نجد قاموسا آخر مليئا بالضبابيات والكلمات الزئبقية والتعبيرات الكبيرة التى تخفى مضمونا هزيلا منكرا لم يجرؤ صاحبه على الإعلان - بصراحة - عنه...

وكنموذج لهذا القاموس اللامنتمى والمنحرف -مهما ادعى أصحابه من دعاوى خداعية- قاموس أمثال: محمد أركون وهشام الجعيط وعبدالله العروى ومحمد عابد الجابرى، وأمثالهم .. من الذين ينطلقون من قواعد ثقافية تنتمى إلى خندق الخصوم وإلى طبيعة مناهجهم ورؤاهم وقواميسهم.. وتتزيد هذه المدرسة فى الضلال والمراوغة، فتزعم أنها - لمجرد أنها ولدت فى بلاد إسلامية أو أنها تحمل أسماء إسلامية - تنطلق من قواعد الثقافة الإسلامية، وأنها تعتمد - وهى جد غير صادقة - على مصادر هذه الثقافة وقواعد انطلاقها العقدية والتراثية.

إن القاموسين المستعملين على هذين المحورين مختلفان تماما، من حيث التعبير عن الشخصية، والخلفية النفسية والعقدية، وروح

الانتماء، ومستوى الوضوح والصراحة والمواجهة، فضلا عن عبق التراث ورائحة الثقافة اللذين يمثلان طعما خاصا لكل حضارة.

إن مصطلح (أسلوب) ليس مفاهيم مبعثرة أو مصطلحات خاصة قد تفرض نفسها - بدرجة كبيرة على المشتركين فى موضوع واحد، مثلما للاجتماعيين مصطلحات وللنفسيين مصطلحات وللجغرافيين مصطلحات ... كلا، فالأسلوب - بعد هذا المستوى المشترك - هو تعبير - بدرجة أعمق - عن كوامن النفس، وهو إنما سمى أسلوبا من (سلب)، لأن صاحب هذا الأسلوب قد استطاع أن يستلب من نفسه كوامن سرها، فلقد كانت النفس منطوية على خبىء من جوهرها فجاء صاحب تلك النفس فانتزع من نفسه سرها، ونشره أمام الناس (١)...

والخطورة ليست على مستوى الفرد - مع وجودها - وإنما الأخطر هو الأسلوب على مستوى الثقافة أو الحضارة، فلكل ثقافة أسلوبها، وكذلك لكل حضارة طعم أسلوبى خاص، وركائز تمتد إلى الأعماق متجاوزة الموجات المتلاحقة ومنتصرة على بصمات الاحتكاك الثقافى!!

«وقد يتعدد النتاج الحضارى والثقافى عند أمة عريقة كالأمة العربية، لكن الناقد البصير يستطيع أن يلتمس خلال ذلك التعدد والتنوع خيطا رابطا (...) هو أسلوب الأمة فى فاعليتها العقلية والوجدانية) (٢)

---

(١) زكى نجيب محمود: أفكار ومواقف ص ٢٢٦ - دار الشروق بمصر - طـ أولى ١٩٨٣

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٧

والثقافة الإسلامية (سواء ترادفت مع العربية عند بعضهم أو شملتها) هى شخصية وهوية وتعبير حضارى لهذه الأمة، وليس من العقل أو المنهجية أن نصب هذه الثقافة فى وعاء نستورده لها محاولين الجمع بين الوضوح والغموض، والتجريد والصنمية والجمالية والنفعية، أو الخيرية والانية... وننساق بالتالى إلى غرس بذور ليست من طبيعة هذه الثقافة، متذرعين باسم الحداثة أو العصرية غير واعين بالحدود الثقافية الفاصلة، والتى تبعد عن أن تكون مجرد استعارة لفظية إلى أن تكون خلطا وترقيعا فى ملامح الشخصية، وإلى أن تكون مزجا بين نتف مبعثرة من حضارات وثقافات متباينة.

إن الثقافة فى غاياتها - والثقافة الإسلامية من باب أولى - يجب أن تنتهى إلى تكوين وجدان خاص وموقف خاص ورؤية خاصة وسلوك خاص.. وبالتالى فإنه من الضرورى أن يدفعنا كل جزء في هذه الثقافة - مضمونا أو أسلوبا - إلى تحقيق الوجدان الإسلامى والحس الإسلامى والموقف الإسلامى.

ولكى تصل الثقافة الإسلامية إلى هذه الغاية - فى ظل وضعها الحالى سواء على مستوى القضايا المطروحة أم أساليب العرض المستعملة - فإنها بحاجة ملحة - وهى تتجه إلى الشباب - إلى أن تقوم طرائق عرضها وأساليب التعبير عنها على المعاناة الثقافية العميقة والملتزمة، وعلى الركائز الفكرية والعقدية للثقافة الإسلامية، وعلى وعى موضوعى بأساليب الخصوم الحضاريين من مستشرقين ومستغربين ... وإنه لمن الضرورى لكى نعرف الأهداف الخبيثة وراء أساليبهم الغامضة، ولكى نحسن الكشف عن السموم المبثوثة فى هذه الأساليب .. من الضرورى

- لتحقيق هذا وذاك وللقدرة على التعامل والمواجهة - أن نفهم أساليبهم ونعيها جيدا دون أن نترك لهذه الأساليب التى تخدعنا بشعارات براقة - فرصة زعزعتنا من مواقعنا أو تجاوزنا للثوابت التى لاتقبل المساومة...

فلكى ننجح فى (أسلوب نشر الثقافة بين المثقفين) يجب أن نعى خطورة الأسلوب وإطاره الحضارى المميز وصلته بالأهداف وارتكازه الجوهرى على المصادر الثابتة ... وهذه هى الشارة الأولى على الطريق الطويل.

الثقافة الإسلامية والوعى بالتراث :

وقفنا وقفة مناسبة لإطار هذا البحث عند مصطلح (الأسلوب).. ويقتضى المنهج أن نقف كذلك عند مصطلح (الثقافة الإسلامية) لنبين - بعيدا عن الشجرة اللغوية - جذور وامتدادات - فقهنا لهذا المصطلح، ولصلته بالشباب..

إن ما نعنيه بالثقافة الإسلامية هو تلك المعارف والسبل التى من شأنها أن تصوغ الفرد والمجتمع -ولا سيما الشباب- صياغة إسلامية تسمح لهم بصياغة الواقع الذى يعيشونه وفق الرؤية الإسلامية للحياة...

إنها ليست مجرد مجموعة من المعلومات النظرية، بل هى - فى إطار أنها إسلامية - تحويل للواقع العقلى والوجدانى بطريقة تمكن من أن يكون العقل والوجدان قادرين على تكييف الواقع الخارجى تكييفا إسلاميا...

إنها أكبر تمهيد لكى يعيش الناس حياة إسلامية إذا ما نجحوا - من الناحية التشريعية - فى وضع شريعة الإسلام موضعها من التطبيق.

إنها العودة إلى الذات الإسلامية عقليا ووجدانيا، على مستوى الفرد والجماعة.. وهذه العودة تحتاج إلى جهاد ثقافى جماعى يقوم به رجال الثقافة الإسلامية.. مستغلين وسائل العصر التربوية والإعلامية.

إن الفرد المثقف الواحد فى عزلته، قد يدرك ذات نفسه، لكننا إذا أردنا للأمة فى مجموعها أن تدرك ذاتها، وتشعر بحقيقة نفسها، فلن يتحقق لنا ذلك إلا حين تنصب جهود المثقفين لتلقى فى نقطة مشتركة، ولقد قيل إن هنالك جوانب ثلاثة للأمة النابضة عروقها بدم الحياة، وهى أن تشعر بذاتها أولا، وأن تعبر عن ذاتها تلك ثانيا، وأن تشعر هذه الذات بغيرها ثالثا، وإذا كان هذا هكذا، فليس ثمة أمة شهدها التاريخ، قد حققت هذه الجوانب الثلاثة، بأوضح مما حققته منها الأمة الإسلامية فى ازدهارها الحضارى، فقد تصورت ذاتها أجلى ما يكون التصور، ثم عبرت عن ذاتها أقوى ما يكون التعبير، ومدت آفاقها لتتصل إلى حضارات الاخرين، أوسع ما يكون الامتداد، ويبقى على الأمة الإسلامية فى عصرنا الحاضر، أن تصنع صنيع أسلافها. (١)

وهذا - قريب تماما - مما أراه وظيفة للثقافة الإسلامية نحو الشباب فى عصرنا الحديث..

إننا لايهمنا أن نقف هنا - كما نفعل فى البحوث الأكاديمية - عند مصطلح الثقافة من ناحية صلته بالزراعة ومعناه اللغوى التقويمى والتهذيبى، ولا عند صلته بالمصطلحات ذات الاشتباك مثل المدنية والحضارة... فهذا لايهمنا هنا.. وإنما الذى يهمنا هو (الثقافة الإسلامية) كوظيفة حضارية إيجابية تعيد الفرد إلى ذاته من خلال جهاده ومساعدات المجتمع له، وتعيد الأمة إلى ذاتها من خلال جـــهاد

(١) زكى نجيب محمود: أفكار ومواقف ص ٦٥.

عام على مستوى الشعب والدولة والمؤسسات الخاصة والعامة وذلك بواسطة التربية والإعلام والكتاب والمسجد والجامعة والمدرسة وغيرها مما يطلق عليه (وسائل النشر) أو وسائل الإعلام والتربية..

وهذه هى الشارة الثانية على الطريق..

الثقافة الإسلامية ومشكلة المصطلحات:

وفى مجال بحثنا ونحن نعالج قضية الثقافة الإسلامية ومشكلة المصطلحات يلزمنا أن لانستهين بقضية المصطلحات المنتمية الأصيلة المعبرة عن شخصيتنا وتراثنا، والقادرة على المواجهة لسيل المصطلحات التى يحاول غرسها فى تراثنا الثقافى الاتجاه المستغرب اللا منتمى.

وليس معنى هذا أن ندور فى فلك مصطلحات إنشائية مكرورة فاقدة لإشعاعات التعبير الواعى عن مضامين ثقافتنا، فمثل هذه السهولة خطر فى الصراع الثقافى، وهى، حتى وإن كانت صحيحة، قد تؤدى إلى شىء من الامتهان لبعض المضامين الجيدة...

وعلى سبيل المثال فإن الإنسان المثقف ثقافة إسلامية قد استعمل كثيرا - وبإسراف- مصطلحات التوازنية والشمولية والتكاملية، والمزج بين الفردية والاجتماعية، والأصل الربانى. تعبيرا عن كثير من ركائز الثقافة الإسلامية أو خصائصها...

ولكن سبيل التكرار اللاواعى وغيرالمؤصل تأصيلا مقننا قد أفقد هذه المصطلحات (العظيمة بالتأكيد) كثيرا من إشعاعاتها العلمية..

أما عندما استعمل مفكر كبير مثل (محمد أسد) هذه المصطلحات فى كتابه الصغير العظيم (الإسلام على مفترق الطرق) فإنه قد احتفظ لها بقدر من الهيبة والتأثير والفاعلية...

كما أن مفكرا عملاقا آخر مثل مالك بن نبى قد طرح فى ساحة

الثقافة الإسلامية عددا من المصطلحات قدم بين يديها رصيدا فكريا هائلا فبقيت - نتيجة هذا المنهج فى المعالجة - متألقة منذ غرست فى أرض الثقافة الإسلامية .. ومازال تقنينه للفعل الحضارى الصاعد على أساس المعادلة التى ساقها..

وهى: (الإنسان والتراب والزمان والمفاعل العقدى الحضارى)[1]... هذا التقنين مازال يبدو شجرة نامية باضطراد فى الذهنية الإسلامية منذ وضع مالك بن نبى بذرتها الطيبة.

ففى تصورنا أن الثقافة الإسلامية يجب أن تتخلص من كل ما يمكن أن يصم الثقافة الإسلامية بالإنشائية والأطر التعبيرية والتقليدية والأساليب التكرارية واصطلاحات المهنة والأساليب الاستظهارية والتعبيرات المجردة من الابتكار والابداع الشخصى والخالية من عناصر المعاناة والتفاعل والمعايشة..

وجدير بالذكر أن الثقافة الإسلامية المعاصرة قد وقعت - فى مجال الصياغة - فى خطأ كبير حين اعتقدت - أو اعتقد المهتمون بها - أن عليهم أن يقدموا مجرد تنظير خارجى أو تبرير عقلى لبعض الأساسات المتصلة بالعقيدة أو الشريعة أو بالنظم الإسلامية، مع شىء من المعالجة المتحمسة لبعض التيارات الوافدة أو ما يسمى بالمذاهب الفكرية الوضعية وربما الأديان الأخرى..

مع أن الثقافة الإسلامية أخطر وأشمل من ذلك بكثير... فليست الثقافة مجرد (رد فعل) أو تدريب على (المواجهة) بل هى أساسا (بناء عقل وفكر ووجدان ومنهج حياة وغرس انتماء حضارى محدد المعالم)..

---

(١) انظر كتابه شروط النهضة ومشكلات الحضارة

وليس عمل الثقافة الإسلامية تلقين بعض المصطلحات التى قد لا تتضمنها المناهج المتخصصة، ففى المناهج المتخصصة التى تتعرض لها الثقافة الإسلامية أعماق أروع كثيرا مما تستطيع الثقافة الإسلامية معالجته بطريقتها الحالية.. ففى (العقيدة) عند دارسيها، وفى الاقتصاد الإسلامى عند المتخصصين فيه، وفى مقارنة الأديان.. وفى النظم السياسية والاجتماعية... فى هذه كلها أعماق على مستوى التخصص أكثر عطاء من نطاق الثقافة الإسلامية.. وكان المأمول من الثقافة الإسلامية أن تحدد اهدافها بوضوح، ولو أنها فعلت ذلك لمرت - كأى علم - بكل صور المعاناة التى تمر بها مراحل الولادة الحقيقية، ولكانت - بالتالى - ستقدم صياغة أعمق، وستكون تعبيرا حقيقيا عن آلام الإنسان المثقف وهمومه وآلامه، وقد تنجح فى أن تقدم له مساعدات كبيرة فى مجال مواجهة الواقع، وفهمه، وأسلوب الحوار معه، ومنهج التغيير البناء الذى يلائم الواقع وينطلق من الأصول، ولربما تساعده - إجمالا - على تكوين الرؤية الإسلامية الشاملة العفوية التى تؤصل وجوده، وتجعله يحسن دون تكلف وبعد المرور بمراحل إفراز حقيقية وصحيحة - معالجة إشكالية إسلامية المعرفة كلها فى مستوييها الإنسانى الفكرى والتطبيقى العملى..

إن الثقافة الإسلامية فى هذه الحال سوف تكون (المقدمة) الصحيحة لكل العلوم التى يتعامل معها الإنسان المسلم نظرية كانت أو تطبيقية، وكذلك سوف تكون (الفلسفة) - أو الحكمة - التى تلخص غايات كل علم وحدوده.. كما أنها فى نهاية هذا الشوط - سوف تكون العين الناقدة القادرة على التمييز بين ما هو إسلامى حقيقى، وبين ما هو إسلامى بطريقة مبتسرة ومتكلفة، وبين ما هو مزيف مغشوش (فى المضمون والمصطلح) حتى ولو زعم صاحبه أنه إسلامى..

ومن المؤسف فإن الافتقاد إلى المعاناة (على نحو ما عانى مالك بن نبى ومحمد أسد وسيد قطب مثلا) أصاب الثقافة الإسلامية بالسهولة الاصطلاحية والتكرارية الإنشائية وحصرها فى دوائر مغلقة ... وهو ما يجب أن يزول حتى نستعيد ثقة الإنسان المسلم فى الثقافة الإسلامية وأهميتها، وهذه هى الشارة الثالثة على الطريق الطويل.

الثقافة الإسلامية ومشكلة المضمون:

إن مساحة المضمون تتحرك ببطء فى كثير من العلوم، وقد تكون ثابتة فى بعضها.. بيد أن المضمون فى الثقافة الإسلامية وهو ما يسمى بمفردات المنهج أو بالقضايا المطروحة يجب أن يتميز بسرعة الحركة والتغير.. كما أن مساحة كل قضية وأسلوب عرضها... ومفرداتها الداخلية - يجب أن تتحرك من عصر إلى عصر، ومن عام إلى عام حسب الأولويات - والتحديات المطروحة - فإذا كانت قضية التفرقة العنصرية أو قوانين الجنسية أو حقوق الإنسان مطروحة بإلحاح على المستوى العالمى - فى فترة ما - فيجب أن توليها الثقافة الإسلامية أهمية ملائمة، وإذا تغير الهم أو الاهتمام - وأصبحت العلمانية أو التنصير بمستوييه (تنصير الإسلام وتنصير المسلمين) أو الماركسية فى مستوياتها المختلفة - هى التحديات المطروحة فيجب أن تستنفر الثقافة الإسلامية رجالها للوقوف ضد هذه الغارة الجديدة، دون أن يؤثر هذا التكيف مع التحديات على مستوى الأساسيات الثابتة التى تطرحها الثقافة الإسلامية، وهى الأساسيات المتصلة ببناء الإنسان المسلم وتفقيهه بالإسلام فقها يدخل (الفقة التشريعى) جزءا منه وبناء وجدانه وإحساسه الإسلاميين.

وفى ضوء هذا يتجلى لنا أن ثمة محورين -- من ناحية المضمون -- تدور فيهما الثقافة الإسلامية أكاديمية أو عامة :-

المحور الأول: وهو محور الثوابت: أى بناء الذات المسلمة وتأسيل نظرتها للكون والحياة والإنسان من خلال منظور إسلامى شمولى.

والمحور الثانى: هو محور القضايا المتحركة، وهى تتغير حسب التحديات من ناحية المضمون وأسلوب العرض والمستوى التركيزى المطلوب.

إن الدفاع عن التاريخ الإسلامى والصحابة والتابعين قد يكون الأجدر بالاهتمام فى فترة من الفترات..

-- ومثل هذا يقال فى الدفاع عن النص القرآنى.

- وقد تكون نبوة محمد وشخصيته هما الأجدر بالعناية.

- وقد تكون الأماكن المقدسة هى الأولى بالاهتمام.

- وقد تكون قضايا الاقتصاد الإسلامى وأساسيات إسلامية المعرفة هى القضايا الملحة...

- وقد يكون النظام الاجتماعى الإسلامى - فى وجه الغارات المادية هو الأحوج إلى الإبراز والتأصيل...

- وقد تحتاج الحقوق السياسية للإنسان المسلم وما يتصل بها من ضرورة فقه أساسيات النظام السياسى الإسلامى - قد تحتاج - لظروف ما - إلى طرح واسع ومعالجة دقيقة.

- وقد يحتاج (فض الاشتباك) أو (تحرير محل النزاع) أو (بيان نقاط الالتقاء والافتراق بين معالم الوطنية والقومية والإسلامية) إلى جهد مكثف فى عصر زحف الوطنية أو القومية المعادية للإسلام مثلا...

- ومثل هذا يقال فى بعض المضامين والمصطلحات التى تطرح بإسراف وعلى مستويات مختلفة - فى بعض الظروف، مثل مصطلحات:

(الأصالة .. التراثية .. التقدمية .. الرجعية .. التحديث .. التغريب .. الحرية .. المنهجية .. العلمية .. العلمانية .. الفردية .. الجماعية .. المادية .. السلفية .. التطرف .. الثورة .. الإصلاح .. الحضارة)

فقد يحتاج الأمر إلى تجلية لحقائق هذه المصطلحات ووضعها فى إطارها الموضوعى وكشف موقف الإسلام منها.

وهكذا فى هذا المحور المتحرك يتجلى الدور الحقيقى والريادى والمتميز للثقافة الإسلامية ويتجلى عطاؤها الذى تتميز به عن العلوم الإسلامية المتخصصة والمعروفة.

* * *

وبالإضافة إلى ذلك - وفى إطار المضمون وصلة الثقافة بالعلوم الأكاديمية والمتخصصة فإن بوسع الثقافة الإسلامية أن تتجه إلى مجالين تكمل بهما عمل هذه العلوم المتخصصة، فهى القادرة - أكثر من المتخصصين - على اكتشاف التحديات الجديدة فى هذه العلوم المتخصصة، وهى - بالتالى - القادرة على أن تدفع المناهج التقليدية إلى تغيير مساحة حركتها، وإلى تغيير نطاق الاهتمام، وإلى مواجهة ما يجد وإهمال أو -تحجيم- القضايا التى انزوت من ميدان المعركة وحصرها فى ميدان الفكر الأكاديمى (لنلاحظ هنا قضايا علم الكلام مثلا).

ومن جانب آخر - وهذا هو المجال المكمل للمجال الأول - فان الثقافة الإسلامية يجب عليها أن تمثل (خط المواجهة الأول) بالنسبة للعلوم الإسلامية المتخصصة، فهى التى تتابع المستحدثات الفكرية - ايجابية أو سلبية - وهى التى تحدد اطار التعامل معها، وتقدم للفكر الإسلامى الأكاديمى رؤية نقدية إسلامية عامة، ثم تترك له أن يقرر مدى أهمية القضية لأن تدخل فى نطاق البحث الأكاديمى المقنن ذى الصفة المدرسية.

فعلوم مثل التغريب والاستشراق، ومحاولات (مركسة الإسلام) أو (بلشفته) أو تأطيره فى نطاق ما يسمى باليسار الإسلامى، أو (تنصير الإسلام) بمعنى تحويله إلى نصرانية ليس لها من الإسلام إلا مجرد اللافتة.. والمشكلات التى أفرزتها الصحوة الإسلامية، على رأسها المشكلات الميدانية للاقتصاد الإسلامى، ومشكلات المرأة المسلمة المثقفة فى وجه الغارة عليها ومشكلة إخراج الحج عن دوره الحضارى الإسلامى وتحويله إلى ميدان للمهاترات السياسية والطائفية ومشكلات المدن المقدسة الإسلامية وحرمتها والواجب الإسلامى العام نحوها، ومحاولات تدمير العالم الإسلامى من داخله ببعث الطائفية أو تزكية نعرات عنصرية أو تأجيج حروب إقليمية مدمرة، أو محاولات الإيقاع التى أصبحت واضحة فى أنها مدفوعة بقوة خارجية بين الحكام والشعوب، ولاسيما بين الحكام والشباب المسلم، مما يوجب صياغة معادلة إسلامية لتكييف هذه العلاقة.. ولمواجهة خطر فهم كثير من الحكام للإسلام - ولشبابه وحركاته - فهما مغلوطا خارجيا..

فلو أن الثقافة الإسلامية اتجهت الى معالجة هذين المجالين المتكاملين لنجحت فى أن تمر بأطوار المخاض وبمراحل المعاناة، ولسوف تنشيء - بالتالى - صياغتها ومصطلحاتها والأطروحات التى تشيعها، على نحو أعمق وأكثر علمية ومنهجية، كما أنها سوف تقدم خدمة كبيرة للواقع الإسلامى الصعب ولشباب الإسلام التائه وللمعرفة الإسلامية - شرعية وتطبيقية - بصفة عامة.

إن عدم مواكبة القضايا والإصرار على تقديم بعض القضايا الثابتة أو التى قد لاتكون ظروف التحديات فى حاجة إليها.. إن هذا من شأنه صرف الشباب عن الثقافة الاسلامية، ومن شأنه أن تكرس عنده نظرة غير مبالية بأهمية الثقافة الإسلامية.. وللأسف فإن كثيرا من الكتب والمجلات والدوريات المعبرة عن الثقافة الإسلامية قد تبدو الصلة بعيدة بينها وبين التحديات المطروحة، وتبدو وكأنها كتاب كتبه عدد من المؤلفين فى موضوعات تجريدية او فى قضايا انتهت حرارتها وأصبحت تاريخا من التاريخ.

وانه لمن الضرورى بمكان أن نلح على ضرورة تطور المضمون (بعيدا بالطبع عن الثوابت) بحيث يواكب التحديات ويقدم الرأى الإسلامى المدروس دراسة معاناة وأصالة، لا مجرد ردود أفعال هامشية قد تضر أكثر مما تنفع، كما أنها تسيء إلى قضية الإسلام العادلة، حين تبدو دفاعا سطحيا هزيلا فى وجه باطل قوى يتنكيء - بدرجة ما - على العلمية والمنهجية.

التربية • • عقل الحضارة :

إن الارتقاء بمعناه الجزئى أو المادى دون اعتماد على التربية والتثقيف هو كبناء جسم الإنسان دون بناء عقله!!

وقد يبدو هذا الإنسان القوى البنية شيئاً عظيماً.. لكنه - بدون العقل - لن يخرج عن كونه شيئاً... وليس إنسانا سويا، فضلا عن أن يكون إنساناً متحضرا...

والتربية ليست فى الحقيقة (للعقل) فقط، بل هى الموجهة (للقلب) أيضاً؛ ذلك لأن القلب له فقهه أيضا، وثمة قلوب - كما يفيدنا القرآن - لاتعقل : «لهم قلوب لا يفقهون بها»(١)...

وقد وعى خصوم الحضارة الإسلامية خطورة التربية و(التعليم) (الذى هو جزء مهم فى التربية) ولهذا أنفقوا الكثير فى سبيل تغريب التعليم فى بلادنا إما مباشرة أو بواسطة تلامذتهم الذين يتكلمون بألسنتنا لكن عقولهم مكونة غرباً... وبينما يعلن تقرير أمريكى رسمى خطير أن (التربية) هى أهم المجالات التى يجب العناية بها، والتى يجب أن تسبق التصنيع والدفاع بل والصحة(٢) ويعلن التقرير أنه إذا جاءت أمة تفرض على أمريكا مناهج غير (أمريكية) لوجب إعلان الحرب فوراً(٣) (مجرد افتراض)... بينما يعلن هذا فى أمريكا

---

(١) الأعراف الآية ١٧٩

(٢) أمة معرضة للخطر - تقرير مقدم للجنة الوطنية بأمريكا ١٤٠٤/١٩٨٣هـ مجلة رسالة الخليج العربى عدد ١٢ - السنة الرابعة.

(٣) المكان السابق.

يفرض علينا نحن المسلمين أن تغرس فى أفضل المواقع فى عواصمنا (الجامعات الأمريكية)، وتنشر مئات المدارس التى تحمل أسماء (الليسيه والفرير، والعذراء، وفكتوريا، والدومينكان، والإنجيلية، والقديس...) ويهتم بهذه المدارس - شكلا ومضمونا وفق المضمون الغربى - فتصبح محاط أنظار كل المثقفين، لدرجة أن أساتذة عربا فى الجامعات الخليجية يقبلون بالحياة بعيداً عن أسرهم العام الدراسى كله حتى لا يفقد صغارهم (فى المراحل الابتدائية وغيرها) مقاعدهم فى هذه المدارس التنصيرية (مدارس اللغات) ...

ولقد عجبت إذ رأيت أستاذاً فى سن الشباب يترك أسرته من أجل (ابن وحيد) فى السنة الأولى الابتدائية... ويرفض لحاق أسرته به... حتى لا يدخل ابنه مدرسة عربية، مع أن البلد العربى الذى يعمل به يهتم اهتماما كبيرا بالتعليم!!

وثمة آثار خطيرة على المستوى الفكرى والسلوكى والنفسى تتركه هذه المدارس، مهما أخفت أهدافها (١).. والغريب أن هذا يحدث فى عهود (الاستقلال) بينما كان من الأهداف الأساسية لحركات الاستقلال طرد لغة المحتل الأجنبى المفروضة، فها هى ذى تعود - بثوب لطيف - من الباب الاخر، وبأيدينا.

وبالإضافة إلى اللغة ومدارسها والجامعات الأمريكية واليسوعية تم غزو أخطر للتربية من خلال العلوم التى تشكل الشخصية الإنسانية

---

(١) ينظر فى هذه الآثار. د / حسان محمد حسان : التعلم باللغات الأجنبية فى المدارس الرسمية العربية -تاريخه. أسبابه. آثاره. نشر القاهرة ١٤٠٠هـ.

والاجتماعية، وتعتبر علوماً قيمية ذات معايير عقدية، وعندما نشأت فى الغرب قامت على أسس ومعايير أخرى لا تتفق فى جملتها مع مجموعة المعايير والقيم التى ينبغى أن تنطلق منها هذه العلوم فى مجتمعنا المسلم(١).

وقد نظر إلى (التربية) وكأنها علم محايد (كالكيمياء والرياضيات) - إذا صح أن تكون هناك علوم محايدة - مع أنها فى صميم تكوين الشخصية وطابعها الحضارى ورسالتها وذاتها ، وحتى كلمة (التربية الإسلامية) - كعلم - كانت مبعثرة ومغزوة.

ومع التربية غزيت مناهج المواد الاجتماعية والدراسات الإنسانية من تاريخ وحضارة واجتماع وعلم نفس واقتصاد وشوه كل شيء، حتى (ابن خلدون) الذى تتلمذ الغرب عليه، تطوع طه حسين بتشويهه، وشوه أدبنا ونسب إليه الانتحال، وأبعد (الاقتصاد الإسلامى) ورفض فى البداية - كمادة فى الجامعات العربية الإسلامية - (والذى يتتبع ما حدث للمناهج الليبية إبان الاحتلال الفاشيستى، وما حدث للمناهج الجزائرية إبان الاحتلال الفرنسى، وما حدث للمناهج التركية بعد إعلان العلمانية سنة ١٩٢٣، وما حدث للمناهج الأندونيسية إبان سيطرة الشيوعيين وما حدث ويحدث فى المدارس الفلسطينية تحت ضغط الاستيطان الصهيونى،... إلخ. الذى يتتبع كل ذلك يدرك مكامن الخطورة، ومواطن الدس، وقنوات السم).

---

(١) التعليم مع الحضارة (مقال - د / سيد دسوقى حسن مجلة رسالة الخليج العربى عدد ١٥ السنة الخامسة ١٤٠٥هـ.

وهناك تفاصيل كثيرة عن مؤسسات التبشير والتغريب التعليمية التى أنشئت فى فلسطين والشام بدءاً من دور الحضانة إلى الجامعة الأمريكية فى بيروت[١] ، والقاهرة واستانبول.. وتفاصيل عن كلية (جوردون) المنشأة بالسودان سنة ١٩٠٢، وكلية (ماكريرى) فى أوغندا التى كان يرسل إليها أبناء جنوب السودان خاصة لاستكمال دراستهم وفقاً للأهداف والتوجيهات الإنجليزية[٢].. وأخرى عن المؤسسات التعليمية الإنجليزية فى عدن منذ دخول الاحتلال البريطانى سنة ١٢٥٦ (١٨٣٩)[٣] وتفاصيل عن مؤسسات تعليمية شيوعية تحمل أسماء واضحة وشعارات مباشرة فى إقليم ظفار بسلطنة عمان، وفى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية (سابقاً) وفى مناطق أخرى وقعت تحت النفوذ الشيوعى فى الصومال.

ولقد ناقش عدد من مفكرينا المسلمين خطورة التعليم الغربى التغريبى على حياتنا الإسلامية منهم شاعرنا الإسلامى الكبير (محمد إقبال) الذى أطلق على هذا النوع من التعليم (حامض التعليم) الذى يحاول إذابة الشخصية الإسلامية ومحو خصائصها الأساسية وتشويه ملامحها، وتوجيهها وجهة غربية بحتة فى الاتجاه والسلوك والمشاعر. ومن هؤلاء المفكرين مفكرنا الإسلامى المعاصر «أبو الحسن

---

(١) راجع التفاصيل : مصطفى خالدى وعمر فروخ. التبشير والاستعمار فى البلاد العربية ص ٧٦

(٢) راجع ضرار صالح ضرار . تاريخ السودان الحديث . مكتبة الحياة . بيروت ص ٢٤٦ وما بعدها - وانظر: حسان محمد حسان - وسائل مقاومة الغزو الفكرى ٧١ -٧٢.

(٣) راجع جاد طه .سياسة مقاومة الغزو الفكرى فى جنوب اليمن دار الفكر العربى ص ٣٧٥ - ٣٧٦ (نقلا عن وسائل مقاومة الغزو الفكرى).

الندوى» فى كثير من كتاباته(١) ومحمد محمد حسين فى كتابيه : (حصوننا مهددة من داخلها، والاتجاهات الوطنية فى الأدب العربى) (٢).

إن الشباب المسلم الذى نشأ فى هذا المناخ وما زال حتى اليوم يعانى منه، يشعر بكثير من الازدواجية، فهذه المناهج والجامعات التى تريد سلخه عن جلده ومسخ شخصيته إنما هى إفراز لشخصية غريبة عنه، وتعبير عن قيم لا تمت إليه... وعلى الجامعات الإسلامية - وما قبلها من مراحل تعليمية - أن تسعى لتطويع العلوم المادية والإنسانية لخدمة الأهداف العليا للمجتمعات الإسلامية، تلك التى تعبر عن عقيدتها وقيمها ورسالتها الحضارية...

وهذه الأهداف العليا يقع على الجامعات عبء كبير فى تحديدها وصياغتها صياغة علمية، كما يقع عليها عبء صياغة القيم السائدة المعبرة عن طابعها الحضارى.

وعليها أن تكون الإطارات القادرة على تحقيق هذه الأهداف وغرس هذه القيم، إذ إن دور الجامعات يأتى فى المقدمة من حيث إعداد الطاقات البشرية المهنية والقادرة على المساهمة فى نقل هذا المجتمع من مجتمع آخذ فى النمو إلى مجتمع متطور خلال فترة زمنية طموحة،

---

(١) راجع التفاصيل : أبو الحسن الندوى، نحو التربية الإسلامية الحرة فى الحكومات والبلاد الإسلامية . المختار الإسلامى القاهرة.

(٢) راجع وسائل مقاومة الغزو المكرى - د/حسان محمد حسان طبع الرابطة ص ٧١، ٧٢ - مكة المكرمة ١٤٠١ هـ

على أن تتم عملية الانتقال تلك مع عدم المساس بجميع المقومات والقيم الصالحة للمجتمع، مع الاستفادة القصوى من الموارد المتاحة بكل قيم ومقومات الحياة وأهمها الإنسان.

والإنسان هو محور الحديث المتصل عن الإنتاجية، لأنه مركز الثقل فى عملياتها، فمنه تنبع، وإليه تتجه، وهو فى ذات الوقت الوسيلة إليها، لأن به تتحقق المعدلات المرتفعة لها، وتنمية الطاقة البشرية هى مهمة أساسية من مهام مؤسسات التعليم العالى، وتقف على قائمة أولويات المجتمع الذى يعانى من قلة السكان، وندرة القادرين من المواطنين على المساهمة فى برامج التنمية(١) .

ومن الجدير بالذكر أنه فى ظل المفهوم الشامل للتنمية ، وذلك الذى يجمع بين التنمية الثقافية والاقتصادية والأخلاقية فى نسيج واحد - يبدو دور الجامعات فى التنمية الموصلة إلى الأهداف العليا دوراً رائداً ، ليس باعتبارها التى تصنع الإنسان فحسب، بل باعتبارها المؤسسات القادرة على التعبير الاجتماعى والثقافى النمطى الذى ينسجم مع شخصية المجتمع وذاتيته الحضارية.

وتستطيع الجامعات - فى ضوء هذه الإمكانية - أن تعالج الأمراض الحضارية الخطيرة فى الأجيال الشابة، وعلى رأسها (القابلية للاستعمار) و (الفراغ العقدى) و (اللاانتماء) و (اللامسئولية) والاستعداد لتقبل (الازدواجية) فى الحياة، أى التعامل بالشخصية المزدوجة غير السوية، والتخلف الفكرى، والأمية الثقافية التى يتمتع

(١) إنتاجية مجتمع - د/ محمود محمد سفر - الطبعة الأولى - ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م - جدة - السعودية ص ١٥٦.

قطاع كبير من حملة المؤهلات العليا.

وإذا كان هدف المجتمع - أى مجتمع - الوصول بأفراده إلى إنتاجية أكبر يصبح لزاما أن يختار المجتمع لكل فرد فيه النوعية المناسبة من التعليم والتدريب خلال مدة محددة ليؤدى الفرد بعدها مهمة بعينها فى خريطة المهام الوطنية للمجتمع، وحسب قائمة أولويات محددة سلفا بحيث يستنفر كل عضو فى المجتمع ليقوم على ثغرة من الثغرات، إما باعتباره فرض عين أو فرض كفاية، وذلك من خلال تحديد واضح للأهداف العليا للمجتمع .

نحن لا ننكر أن ذلك بالطبع أمر بالغ الصعوبة، وتختلف النظم فى محاولتها القرب من الغاية، ففى بلد كأمريكا تعطى للطالب حرية الحركة فى المدرسة والجامعة والمجتمع ليكتشف نفسه، ويحدد قدراته، ويصحح خطوه.

أما فى بلدان العالم الإسلامى فحرية الحركة الاستيعابية للطالب داخل النظام تكاد تكون معدومة، والأجهزة التعليمية غير قادرة (إما لثقل حملها، أو لعدم اكتمالها) على الاكتشاف المستمر للقدرات المختلفة عند الطالب، وحتى لو اكتشفت قدراته فإن تحقيق المسارات المختلفة للقدرات المختلفة أمر ليس فى قائمة أولويات النظم التعليمية فى بلدان العالم النامى ، بل إنه فى أحيان كثيرة يؤدى الهيكل الوظيفى فى المجتمع إلى اختيار خاطىء من الطالب لنوع من التعليم أو التدريب بحيث يملى هذا الهيكل ضغوطا اجتماعية تجعل مساراً بعينه أكثر بريقا وأشد جذبا(١)

(١) إنتاجية مجتمع د/ محمود محمد سفر ط١ ص ١٥٩ (بتصرف).

وهذا ما وقع للتعليم الجامعى - فعلا - فى كثير من بلداننا الإسلامية بحيث وجدنا كثافة لا لزوم لها فى بعض التخصصات ، وبالتالى فائضا كبيراً... بينما وجدنا عجزا فى كثير من التخصصات. وحتى فى داخل الكلية الواحدة، لم يكن التقسيم بين التخصصات متوازنا ومرتبطا بحاجات المجتمع التى توضحها خطة مستقبلية. وقد كان لهذا المسلك تأثيره المدمر على الشباب ، إذ ظهرت لديهم البطالة المقنعة وأحسوا بأنهم عبء على حاضر أمتهم ومستقبلها، وألفوا الكسل وعدم الاهتمام بقيمة العمل، بل فقدوا تقديرهم لقيمتهم الإنسانية... فضلا عن وجود تخصصات كثيرة تعانى من نقص كبير.

وثمة مشكلات أخرى تتصل بالتربية وتحتاج إلى جهد كبير من الجامعات لما لها من صلة بالشخصية الحضارية للأمة... وللأسف الشديد، فلا يكاد يهتم بها إلا عدد قليل من الجامعات فى العالم الإسلامى، وإلا بعض الغيورين الذين يعملون بجهود فردية ومحدودة... وهذه المشكلة هى ما يعرف بازدواجية التعليم فى عالمنا العربى والإسلامى، حيث نجد على امتداد الجامعات نمطين متناقضين:

أحدهما: يجهل قدر العلوم الإنسانية كالاجتماع والاقتصاد والتاريخ وعلم النفس والفلسفة والتربية ، مع ما أثبتته هذه العلوم من قدرة تنظيرية فى مجال تقدم الغرب ووعيه بذاته.

وثانيهما: يتبع التحليل الغربى فى رؤيته لهذه العلوم[1] حتى أصبح

(١) انظر فلسفة العلوم بنظرة إسلامية : كارم غنيم (نقد كتاب) المسلم المعاصر ٤٣/١١.

التصور الكونى والنفسى والأخلاقى والاجتماعى الذى تطرحه هذه الأفكار حرباً على دين الأمة ورؤيتها الإيمانية للكون وما وراء الكون.

وفى مرحلة (النضــج) الذى اصطلحنا على تسميته (بالصحوة) أو بداية الثقة فى أنفسنا وفقهنا لأبجديات التحضر... فى هذه المرحلة يجب تصحيح موقفنا من هذه العلوم.. ولن يتأتى ذلك إلا بمزج هذه العلوم بعلوم الإسلام ونظرة الإسلام، فهما - فى الحقيقة - كيان واحد... وليس هناك فى الحقيقة شئ اسمه... فقه.. وآخر اسمه اقتصاد واجتماع... فالثلاثة كيان واحد... والأخلاق وعلم النفس والتربية منظومة واحدة يجب أن تنبع من التصور الإسلامى شريعة وأخلاقا، والفلسفة يجب أن تشرق من شمس العقيدة والوحى، وإلا أصبحت تجريداً وهمياً وجدلا عقيماً يستطيعه كل إنسان بلا ضوابط أو ركائز.

وهكذا «فأسلمة» المعرفة مطلب وجودى.. ولا بد من سد الفجوة الملحوظة بين التخصصات الإسلامية والتخصصات الأخرى وإلغاء الحواجز بينها بحيث تتم «أسلمة» التخصصات الأخرى بأن تنبع من مفاهيم إسلامية، وفى الوقت نفسه الاعتراف بالتخصصات العلمية ومناهجها، كالطب والهندسة، والصيدلة، والزراعة والعلوم.. إلــخ، وقبولها وتطويرها إلى أحدث ما تصل إليه من منابعها فى حضارتنا ومن تطورها فى الغرب، مع التأكيد على المحافظة على الشخصية للطالب الدارس لها ليتمكن من ممارسة مهنته بعد تخرجه إنسانا مسلماً قبل أن يكون متخصصا فينطلق فى ممارسته من تصورات إسلامية واضحة فى التعامل مع الآخرين حتى يمكن أن يتميز عن صنوانه من غيـر المسلميـن أخلاقيـاً وسلوكيـاً... وهكـذا فلـن نصـل إلـى منظـور

حضارى سليم دون (أسلمة المعرفة) وأسلمة عقول الباحثين عن المعرفة(١) .

إن التربية الغربية تقوم فلسفتها - بصفة عامة - على عدد من الكليات التى تتناقض تماماً مع فلسفتنا وحضارتنا.. ومن هذه الكليات: فكرة التطور فى كل شئ حتى فى الإنسان والقيم، وفكرة البقاء للأقوى، وفكرة صراع الطبقات، وفكرة (فرويد) فى الدافع الجنسى وراء حركة الإنسان، وفكرة النسبية وإنكار كل مطلق، وفكرة الوضعية، وإن المعرفة الحقة لا تقوم إلا على المشاهدة وحدها.(٢)

فكيف نأخذ مناهج هى ثمار هذه البذور التى تتناقض تماماً مع كلياتنا الفلسفية التى تؤمن بوجود عناصر ثابتة فى الإنسان والقيم، وترى أن البقاء للأصلح «وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض» وتؤمن بتعاون الطبقات لا بصراعها، وترى أن الدافع الإنسانى يخضع لمحرك الإيمان - بالدرجة الأولى - ولاعتبارات أخرى مكملة لها - ومنها الجنس والاقتصاد، وترى أن (عالم الغيب) - والمعقولات - أساسيات فى نظرية المعرفة الحقة.

ويجب ألا يغيب عن بالنا أن التعليم الجامعى يحتوى على عنصرين متكاملين : الجوهر الثقافى، والإعداد التخصصى. فأما الجوهر الثقافى فله أبعاد علمية وأبعاد تربوية وأبعاد حضارية، وأما الإعداد التخصصى فله أبعاد تحليلية وأبعاد تصميمية وأبعاد تقنية(٣).

أليس من الأجدى أن تنطلق مناهجنا وجوهر ثقافتنا من تصوراتنا

---

(١) انظر إنتاجية مجتمع. الدكتور محمود محمد سفر. الطبعة الأولى ١٩٨٤م . السعودية. ص ١٦٤، ١٦٥.

(٢) د/ سيد دسوقى حسن: مرجع سابق.

(٣) المرجع السابق.

الكلية ؟ وأليس من الأجـدى أن لا تبدد طاقات جامعاتنا التطبيقية فى (البعد التحليلى) «وبدرجة ما البعد التصميمى» على حساب عملية التقنية ؟

الحقيقة أننا بحاجة إلى إعادة نظر فى النسبة بين البعد التحليلى والبعد التصميمى والبعد التقنى فى ضوء الحاجة الاجتماعية (١) .

ونحن - أيضا - فى حاجة إلى إعادة نظر مستبصرة فى ضوء البعد الاجتماعى - وكلياتنا الحضارية - لكل مناهجنا فى الجامعات والتعليم عموما.

وعندما نقوم بهذين المطلبين الجوهريين فسوف ينتهى عصر التيه والتمزق فى شبابنا المثقف، وسوف يجد شبابنا طريقه معبداً نحو الانطلاق والإبداع، شريطة أن يقف ذلك فوق أرضية السنة النبوية والسيرة الشريفة - نموذجنا الحضارى - وفى إطار بعث الذات المسلمة الواعية بإطارها الحضارى ومهمتها التاريخية.

(١) د/ سيد دسوقى حسن : مرجع سابق.

الفصـــــــل الرابـــــــع

الغزو الثقافى الحديث فى المجال التاريخى ودوره فى أزمتنا الحضارية

أسباب الغزو الثقافي في تاريخنا:

كثيرة هى الغارات التى شنت - ولا تزال - على تاريخنا الإسلامى، وقديمة - أيضا - هى هذه الغارات، وموصولة تتدافع حلقاتها فى سلسلة يأخذ بعضها فى خناق بعض ...وتعود هذه الغارات قديمها وحديثها لأخطاء أساسية...

أخطاء تتصل بسيطرة (المذهب) على (المنهج) و (الولاء المسبق) على (الحقيقة الموضوعية) ...

وأخطاء تتصل (بمخططات موصولة) تهدف إلى القضاء على عظمة تاريخ هذا الدين وعظمة حضارته .

وأخطاء تتصل (بأحقاد موروثة) نشأت منذ ظهر الإسلام على هذه الأرض واستطاع ببساطته وملاءمته للفطرة ووضوح حقائقه العقدية والتشريعية والأخروية أن يغير مجرى التاريخ، وأن يعيد رسم خريطة العالم، وأن يتسنم ذروة الحضارة، ولقد قام تاريخ هذا الإسلام وقامت حضارته فوق الساحة نفسها التى كانت لعقائد أخرى - بطبيعة الحال - فكان هذا مبعث أحقاد لدى أصحاب هذه العقائد .

وأخطاء تتصل بأسباب أخرى كثيرة لكنها - فى معظمها - تلتقى عند نقطة (الصراع الحضارى) الذى يعنى (تشويه) تاريخ هذه الأمة والانتقاص من قدر تجربتها فى التاريخ ودورها فى الحضارة، ويعنى - أيضا - طمس (العوامل) التى جعلت هذه الأمة تثب هذه الوثبة العظمى فى التاريخ ... حتى أصبحت مكتبة الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر (ت ٣٦٦هـ) تضم أربعمائة ألف مجلد بينما كانت أكبر كنيسة فى أوربا -أو مكتبة عامة - لايزيد ما تمتلكه من الكتب على (١٩٢) كتابا.

فكيف حدث هذا القفز الحضارى الهائل ؟

وكيف استطاع جيل الصحابة الذى نشأ فى صحراء العرب الوثنية بصفة عامة أن يصنع هذا التحول الحضارى الخطير الذى لم يتكرر فى التاريخ ؟!

لقد كانت أحداث المائة الأولى من عصور الإسلام من معجزات التاريخ، والعمل الذى عمله أهل المائة الأولى من ماضينا السعيد لم تعمل مثله أمة الرومان ولا أمة اليونان قبلها ولا أمة من الأمم بعدها .. أما جيل الصحابة فإنهم جميعا كانوا شموسا طلعت فى سماء الإنسانية مرة ولا تطمع الإنسانية بأن تطلع فى سمائها شمس من طرازهم مرة أخرى(١).

إن تلك المعجزات التى صنعها (القرآن) و (التربية المحمدية) لحرية - فى نظر أعداء الإسلام - بحرب دائمة لمحو إشعاعاتها، ولصرف المسلمين عن التعلق بها والدوران فى فلكها، وعن الاعتقاد بأن آخرهم لن يصلح إلا بما صلح به أولهم.

إن نماذج أبى بكر وعمر وعثمان وعلى بن أبى طالب وخالد والزبير وطلحة وعمرو بن العاص - وهلم جرا - يجب أن تفسر مواقفهم تفسيرا يجعل وراء ظاهرها باطنا سيئا يجردها من عنصر (الإخلاص) ويجب أن تكون فترة (السيرة) كلها بدءأمن صاحب الرسالة العظمى - عليه الصلاة والسلام - هدفا رئيسيا للشبهات والطعنات والتماس التبريرات المغلوطة لكل مواقف اجتهادية.

---

(١) العواصم من القواصم -المقدمة- بقلم العلامة محب الدين الخطيب.

وبعد الراشدين يأتى الأمويون الذين تلقفوا الراية، وساحوا بها فى الأرض فاتجهوا غربا حيث أتموا فتح المغرب (٨٦هـ) الذى كان قد توقف بعد معركة ذات الصوارى (٣٥هـ) وفتحوا الأندلس (٩٢هـ) واتجهوا شرقا ففتحوا ما وراء النهر بقيادة المهلب بن أبى صفرة ومحمد بن القاسم الثقفى ومسلمة بن عبد الملك ...

وكما لم تنج السيرة والعصر الراشدى من ترصد هؤلاء، وكما لم ينج الأمويون - من باب أولى - فقد نالت سهام هؤلاء العباسيين وكانت السهام الموجهة إليهم أكثر ...، لأن عمرهم قد امتد، وخلفاءهم كانوا أكثر.. وبالتالى فإمكانية التصيد والتشويه تمتد إلى أطول مساحة ممكنة !!.

وهكذا تتوالى الحلقات، بحيث يراد لأمتنا أن تنتهى إلى الاقتناع بأن تاريخها وحضارتها لا يستحقان منها كل هذا الولاء، وبأن الانتماء إلى غيرها لن يؤدى إلى خسارة كبيرة بل ربما يؤدى إلى بعض مكاسب (الحداثة) و (المعاصرة)!!.

المنهج المنحرف فى معالجة تاريخنا:

والغريب أن هؤلاء يضعون لتشريح تاريخنا (منهجا خاصا) - وصولا إلى إدانته - فبينما يعالجون تاريخهم، وتاريخ كل الأمم الأخرى بمقياس قريب من (الواقعية) و (الموضوعية) لدرجة أنهم تواضعوا على التفرقة بين الالتزام العام والحياة الشخصية، فإنهم يعمدون إلى محاكمة تاريخنا وكأنه تاريخ ملائكة ليسوا من البشر، إنهم يريدون منهم أن لا يختلفوا فى الرأى ولا يجتهدوا فى الوصول إلى ما يؤمن كل منهم أنه الحق ... إنهم يريدونهم قوالب مصبوبة فى قالب واحد

دون أدنى تعبير عن العقل الخاص والرؤية الخاصة .

والحقيقة أننا نحن-المسلمين-ساعدنا على شيوع هذا المنهج .. فقد تحدث كثير منا عن هذا التاريخ بطريقة أسطورية فبدا هذا التاريخ وكأن الذين عاشوه يجب أن لا تكون لهم أية اجتهادات مرجوحة، بل كلهم يجب أن تكون كل اجتهاداتهم راجحة - وهو أمر لا يستقيم ومنطق الحياة - ولقد صرفنا هذا المنهج عن التحليل الموضوعى الكريم فى إطار الأدب الإسلامى الذى علمنا إياه نبينا عليه الصلاة والسلام .

وقد أدى هذا إلى موقفين :

موقف قبول كامل لهذا التاريخ دون الاستفادة من بعض الجوانب السلبية البشرية التى هى ضرورة فى الاجتماع البشرى ...

وموقف آخر تمثل فى رد فعل يذهب إلى رفض هذا التاريخ مستجيبا إلى أية دراسات تتلفع برداء العلمية والعملية فى تحليل التاريخ، وتعمد إلى بث الشبهات والافتراءات ..وتضخم الاجتهادات البشرية المخلصة فتحولها إلى أخطاء وكبائر..!!

وأيا كان الأمر - فقد كان هذا الموقف - من الأعداء والبسطاء مظهراً من مظاهر المنهج المنحرف فى معالجة تاريخنا، وهو مظهر سار فى تاريخنا كله حتى اليوم .. فنحن ما زلنا ننظر إلى مصلحينا وأئمتنا فى العصر الحديث بالمنظار نفسه .. فجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده - مثلا - يتواطأ كثيرون على إدانتهما، وقد بذل أحدهم عمره - عن حسن قصد - وهو الدكتور محمد محمد حسين - رحمه الله - فى ترصد حياتهما وتأويلها - دائما - لغير صالحهما

... وكان على رأيه آخرون من المفكرين، ومنهم : الدكتور على سامى النشار، والأستاذ محمد عطية حميس المحامى - رحمهما الله - ومازال على هذا الرأى كثيرون فى الجزيرة العربية ومصر حتى اليوم!!

وقد التقى مع هذا الرأى (واستثمر الكتابات الإسلامية فيه) الدكتور لويس عوض الذى كان يمثل قلعة من قلاع الصليبية فى مصر ... والرجل الذى يرفض كل ما هو إسلامى وعربى ..ويحارب على صفحات صحفنا المصرية والعربية فى سبيل هدفه، ويأخذ من أموالنا مكافآت سخية كفاء عمله الآثم، وهكذا التقى البسطاء مع الأعداء... فى نموذج حديث.

وفى المقابل وجد آخرون لا يسمحون بتشريح حياة الأفغانى ومحمد عبده بالمبضع البشرى الذى يرصد الحسنات والسيئات ويوضح الظروف المحيطة بالاجتهادات الخاطئة!!

وإذا ما تركنا هذا المظهر من مظاهر الانحراف، فإننا نجد مظاهر أخرى ساعدت على الانحراف عن المنهج الصحيح فى معالجة تاريخنا.

ومن هذه المظاهر الاختلاف الأساسى فى النظرة إلى الإنسان ومقوماته بين المسلمين وغير المسلمين .. فغير المسلمين قد ألفوا النظر إلى الإنسان وحركته وحروبه وتضحياته وإقامته للمذاهب والدول بمنظار مادى بحت، انطلاقا من تركيزهم على الجانب المادى فى الحياة واستهانتهم بالجانب الروحى والأخلاقى فيه، ولهذا فهم يفسرون حركة الحياة بالعامل الواحد المادى أو الاقتصادى ويكادون يغفلون دور العناصر الأخرى . وبعضهم يدين «شبنجلر» و «توينبى» لاعتمادهما نزعة غيبية فى تفسير التاريخ، ولايتصور هؤلاء كيف أن أبا بكر يتبرع بكل ماله، وكيف أن صهيبا ترك لأهل مكة كل ثروته

وقال له الرسول : (ربح البيع) .. فهم من عالم آخر بعيد لايستطيعون منه أن يدركوا هذا المستوى الغريب، وهم لذلك يلتمسون كل ما يظنونه يخدمهم لتفسير حركة الفتوحات الإسلامية تفسيرات مادية أو اقتصادية، بل إنهم أرادوا لظهور الإسلام نفسه أن يكون قد ظهر لعوامل اقتصادية أو لإنصاف بعض الطبقات!!.

هذه الاستجابة الناقصة هى أول ظاهرة تتسم بها البحوث الغربية عن الموضوعات الإسلامية؛ ذلك أن هناك عنصرا ينقص الطبيعة الغربية - بصفة عامة - لإدراك الحياة الشرقية بصفة عامة والحياة الإسلامية على وجه الخصوص ... عنصر الروحية الغيبية، وبخاصة فى العصور الحديثة بعد غلبة النظريات المادية والطريقة التجريبية على وجه أخص، وكلما كانت هذه الموضوعات الإسلامية ذات صلة وثيقة بالفترة الأولى من حياة الإسلام كان نقص الاستجابة إليها أكبر فى العقلية الغربية الحديثة(١).

وبالإضافة إلى هذا فقد درج أكثر المستشرقين الباحثين فى التاريخ الإسلامى على الخضوع لميزان الهوى، واللجوء إلى كتابات من سبقوهم من المستشرقين وكأنها (المصادر الأصلية) والاعتماد على الأفكار الكنسية عن الإسلام، تلك التى سيطرت على الفكر الغربى فى العصر الوسيط والحديث، وأكثرهم يعمل فى دائرة مهمتها الحرب على الإسلام والمسلمين، ويقومون بأبحاث موجهة أصلا لتحقيق أهداف هذه الدائرة، وبالتالى فهم يضعون فى أذهانهم فكرة معينة ويبدأون فى تصيد الأدلة لإثباتها، وحين يبحثون عن هذه الأدلة لا تهمهم صحتها بمقدار مايهمهم

(١) الشهيد سيد قطب: فى التاريخ فكرة ومنهاج ص ١٦١ دار الشروق.

إمكان الاستفادة منها لدعم آرائهم الشخصية، وكثيرا ما يستنبطون الأمر الكلى من حادثة جزئية، أو أنهم يدخلون بشخصياتهم وآرائهم وأهوائهم الخاصة فيفسرون الحوادث ويناقشون النصوص، ويحللون القضايا والشخصيات الإسلامية على ضوء وجهة نظرهم، ويطلون من نافذتهم الخاصة فيلقون ظلالا معينة تغير معالم الصورة الأصلية . ومن هنا يضربون فى متاهات أملاها عليهم الهوى والغرض رغم ما توافر لهم من الإمكانات العلمية بالحصول على المخطوطات الثمينة من تراث الإسلام، التى كان من شأنها أن تهديهم إلى الفكرة السليمة عن الإسلام والمسلمين(١).

ويشير الدكتور «جواد على» إلى أن المستشرق كيتانى كان يعتمد منهجا معكوسا فى البحث يذكرنا بكثير من المختصين الجدد فى حقل التاريخ الإسلامى والذين يعملون وفق منهج خاطىء من أساسه؛ إذ يتبنون فكرة مسبقة، ثم يجيئون إلى واقع التاريخ لكى يستلوا منه ما يؤيد فكرتهم ويستبعدوا ما دون ذلك، فلقد كان «كيتانى» ذا رأى وفكرة، وصنع رأيه وكونه مما فى السيرة قبل الشروع فى تدوينها، فلما شرع بها استعان بكل خبر من الأخبار ظفر به ضعيفها وقويها، وتمسك بها كلها ولا سيما ما يلائم رأيه، ولم يبادر بنقض الخبر الضعيف بل قواه وسنده وعده حجة، وبنى حكمه عليه. ومن يدرى فلعله كان يعلم بسلاسل الكذب المشهورة والمعروفة عند العلماء ولكنه عفا عنها وغض نظره عن أقوال أولئك العلماء فيها، لأنه صاحب فكرة يريد إثباتها بأية طريقة كانت، وكيف يتمكن من إثباتها وإظهارها

---

(١) عماد الدين خليل: دراسات تاريخية ص١٦١ نشر المكتبة الإسلامية.

وتدوينها إن ترك تلك الروايات وعالجها معالجة نقد وجرح وتعديل على أساليب البحث الحديث(١)٠

وترد فى ختام كتاب ايتين دينيه (الشرق كما يراه الغرب) بعض الآراء حول هذا المنهج حيث يقول :

لقد أصاب الدكتور سنوك هيرغرنجة بقوله (إن سيرة محمد الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضى عليها بالعقم إذا سخرت لأية نظرية أو رأى سابق) ٠

ويعقب صديقنا الدكتور عماد الدين خليل على هذا الاتجاه الملحوظ فى الفكر الاستشراقى بقوله : ونحن نستطيع أن نحصل على عشرات بل مئات من هذا (الانتقاء الكيفى) أو التفسير الاختيارى للنصوص التاريخية فى كثير من كتب المستشرقين وبخاصة أجيالهم السابقة، فبروكلمان على سبيل المثال لا يشير إلى دور اليهود فى تأليب الأحزاب على المدينة ولا نقض بني قريظة عهدهم مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى أشد ساعات محنته، ولكنه يقول (ثم هاجم المسلمون بنى قريظة الذين كان سلوكهم غامضا على كل حال) ويتغاضى عن حادثة «نعيم بن مسعود» فى معركة الخندق كسبب لانعدام الثقة بين المشركين واليهود، ولعله يريد أن يوحى بذلك إلى أن اليهود لا يمكن أن يخدعوا!!.

ومثل هؤلاء - أيضا أولئك الذين يسقطون على التاريخ الإسلامى أهواءهم المذهبية، فهم منطلقون - أيضا - من خلفية فكرية قهرية متعسفة تلوى عنق الحقائق كرها حتى تصبح هذه الحقائق خادمة فى

(١) عبد الكريم باز: افتراءات فليب حتى وكارل بروكلمان ص ٢٥ نشر دار تهامة - السعودية.

بلاط (الاشتراكية) مرة و (الليبرالية) مرة أخرى، ويصبح عمر وأبو ذر يساريين وعثمان وعبد الرحمن بن عوف يمينيين إقطاعيين، ويصبح هناك صراع بين اليمين واليسار فى الإسلام [1] وقد لجأوا - فى سبيل تكييف الوقائع حسب أهوائهم - إلى الاعتماد على الأراء والتحليلات الضعيفة وعمقوها وجعلوها هى الحق، وسواها باطل، كما رجحوا اراء المارقين والمنحرفين واعتبروهم الفلاسفة والمفكرين الممثلين للإسلام، وفى مجال التاريخ رجحوا اراء أصحاب الفرق الباطنية وأصحاب النزعات الفوضوية والإلحادية وجعلوهم (المعارضة الثورية) لسيادة التيار الإسلامى المحافظ والممثل للشعب المسلم.

ومن مظاهر المنهج المنحرف الذى يلتزم به أقطاب الغزو الثقافى لتاريخنا ما يعمد إليه أكثر المستشرقين من إسقاط المنطق الوضعى العلمانى، والرؤية البيئية المعاصرة للمناهج الغربية على الوقائع والأحداث الإسلامية الماضية فلقد رأى المستشرق المسلم دينيه - على سبيل المثال - أنه من المتعذر إن لم يكن من المستحيل، أن يتحرر المستشرقون من عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة وإنهم لذلك قد بلغ تحريفهم لسيرة النبى والصحابة مبلغا يغشى على صورتها الحقيقية من شدة التحريف فيها، ورغم ما يزعمون من اتباعهم لأساليب النقد البريئة ولقوانين البحث العلمى الجاد فإننا نلمس من خلال كتاباتهم أن محمدا يتحدث بلهجة ألمانية، إذا كان المؤلف ألمانيا، وبلهجة إيطالية إذا كان الكاتب إيطاليا وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب، وإذا بحثنا فى هذه السير عن الصورة الصحيحة فإنا لا نكاد نجد لها من أثر.

(١) مقالات للكاتب الأستاذ أحمد عباس صالح نشرت بمجلة الكاتب تحت هذا العنوان وقد عاد إلى الله وأدى الحج العمرة!! ونتمنى أن يعيد النظر فى تشريعه هذا!!.

إن المستشرقين يقدمون لنا صورا خيالية هى أبعد ما تكون عن الحقيقة، وهكذا تتعالى (المظاهر) التى أدت إلى انحراف المنهج لدى طبقات كثيرة، من هؤلاء الذين يشتغلون بمعالجة قضايا تاريخنا الإسلامى وحضارتنا الإسلامية ...

وكلها مظاهر منبعها الجهل فى الأقل، والحقد فى الأكثر، والبعد عن المنهج العلمى السليم فى كلا الحالين.

تاريخنا والغزو التنصيرى والعلمانى:

دأبت الدوائر الكنيسية والغربية بصفة عامة على الاشتغال بتاريخنا وحضارتنا بطريقة مكثفة .. ولو حصرنا عدد المشتغلين بالتاريخ الإسلامى وتراث الإسلام من هؤلاء لوجدناهم أعداداً غفيرة، وقد تتلمذ على أيديهم من المسلمين كثيرون، كما تتلمذ على أيديهم بعض النصارى العرب الذين خانوا حضارتهم العربية والإسلامية، ولم يكونوا فى مستوى النضج الحضارى الذى مثله الشاعر اللبنانى (بشارة الخورى) أو السياسى الوطنى المصرى (مكرم عبيد) الذى كان يقول (أنا مسلم وطنا مسيحى دينا) ... وكان من أسوأ هؤلاء وأجرأهم على الدعوة للتغريب والتنصير الكاتب سلامة موسى والمؤرخان جورجى زيدان وفيليب حتى، ثم تلميذهما (لويس عوض)!!

وقد تعاون المستشرقون و المستغربون معا على تشويه تاريخنا، ولهم فى ذلك خطوط فكرية ثابتة ... نستطيع أن نلم بأهمها على النحو التالى:

١ - التركيز على فترات الخلاف بين المسلمين وتوسيع دائرة الحديث عنها، والإغضاء - بالتالى - عن المساحات الأخرى الكبيرة المتألقة.

٢ - القول بأن فترة الالتزام بالإسلام لا تعدو أن تكون فترة العصر الراشدى.

٣ - إثارة العنصريات وتعميقها بين العرب والبربر والأتراك والفرس بهدف إضعاف روح الإخاء الإسلامى بين المسلمين، وهم يتذرعون لذلك بإحياء النزاعات والخلافات بين هذه العناصر الإسلامية.

٤ - محاولة إبراز كلمات (العروبة) و (العرب) و (الفكر العربى) و (الحضارة العربية) بغرض إثارة الشعوب الأخرى التى ساهمت فى صنع الحضارة الإسلامية وتأليبها ضد العرب.

٥ - إبراز دور الأقليات غير المسلمة وتحريكها ضد الأمة ... والزعم بأنها أقلية ظلمت وانتهكت حقوقها.

٦ - كراهية كل الدول والجماعات التى أنقذت المسلمين ووقفت ضد الزحف الصليبى مثل المماليك والأيوبيين والعثمانيين ويفوز العثمانيون بالنصيب الأوفر من حقد هؤلاء لاعتبارات كثيرة.

٧ - محاولة إرجاع ما يوجد من صور النهضة فى الحياة الإسلامية إلى الاحتلال الأوربى، مثل الحملة الفرنسية على مصر، وبعثات محمد على إلى أوربا.

٨ - تمجيد كل الذين خانوا الإسلام وحاربوه مثل مصطفى كمال أتاتورك فى تركيا وأكبر شاه فى الهند وغيرهما .. وفى المقابل الانتقاص من قدر المجاهدين والمصلحين وتلفيق التهم ضدهم.

٩ - التشكيك فى التراث الحضارى للمسلمين بدعوى أن الحضارة الإسلامية منقولة عن الحضارة الهيلينية، وأن المسلمين - بالتالى - لم يكونوا إلا نقلة ومترجمين لفلسفة تلك الحضارة، ولم يكن لهم إبداع فكرى ولا ابتكار حضارى(١).

١٠ - تشويه منصب الخلافة الإسلامية ورميه بأبشع الصفات وإعلان

---

(١) عبد الكريم على باز : افتراءات فيليب حتى وبروكلمان.

حرب دائمة عليه حتى بعد زواله ... وأليس عجبا أن تكون اتفاقية «كرزون» المبرمة ضمن مؤتمر لوزان (٢٤ يوليو ١٩٢٤) متضمنة فى بندها الأول : (إلغاء الخلافة الإسلامية نهائيا من تركيا) وفى بندها الثانى أن تقطع تركيا كل الصلة بالإسلام !! أليس هذا التدخل فى الشؤون الداخلية شيئا سافرا لعداء لايشبه إلا تدخل أمريكا أمام أعيننا فى شؤون بلد عربى وإرغامه على إلغاء تطبيق الشريعة ...وتهديد الآخرين الذين يفكرون فى السير فى هذا الطريق!!.

١١ - تشويه تاريخنا الحديث بطريقة مزرية، وقد ذكرنا أن الدولة العثمانية باعتبارها البلد الذى قام بالدور الأساسى فى حماية المسلمين فى القرون الخمسة الأخيرة قد فازت بأكبر نصيب من هذا الهجوم التنصيرى.

وقد وصل الأمر بهذا الغزو الثقافى المشين أن اعتبر الوجود الإسلامى التركى الذى حمى الشاطىء المغربى كله، وصد الغزو الأسبانى الزاحف بعد سقوط غرناطة، وأدخل الرعب فى قلوب الأوروبيين وجعلهم يقفون فى موقف الدفاع لأربعة قرون ...

أقول: لقد اعتبروا هؤلاء المنقذين الأتراك (استعمارا)واحتلالا واعتبروا الحركات العميلة للصليبية الدولية ومحافل الماسونية التى باعت فلسطين - حركات تحريرية ثورية!!

واعتبار الأتراك مستعمرين أمر ترفضه طبيعة الأخوة الإسلامية، ولئن كان بعض الولاة الأتراك قد أخطأوا فى حق العرب ... فإن كثيرا من (الحكام العرب)الذين حكموا بعد الترك قد أجرموا فى حق شعوبهم ... وقد كان الولاة الأتراك فى جملتهم أفضل كثيرا من الذين حكمونا فى عصور استقلالنا العظيم (!!) ومع ذلك - وبالإضافة إلى الأخوة الإسلامية - فنحن نتساءل:

هل كانت تركيا دولة استعمارية؟

ولكى نجيب - علميا - على هذا السؤال لا بد لنا من أن نتفق على معنى (استعمار) ... الاستعمار - تاريخيا - حالة معينة من التطور الاقتصادى ... تقف فى قمة التطور الرأسمالى ... فهل كانت الدولة العثمانية واقفة فى هذه القمة؟ بالطبع لا .. لقد كانت أفقر من بعض البلاد التى يقال إنها خاضعة لها، فالعلاقة الرسمية الوحيدة التى كانت تربط مصر - مثلا - بتركيا هى الخطبة للسلطان، وحق السلطان فى تعيين الوالى .. الوالى الذى لايملك من الأمر شيئا، والذى كان المماليك والعلماء - بل والعامة - يملكون عزله فى أى وقت، ودون إبداء الأسباب.

وقبل الغزوة الفرنسية استقل مملوك فعلا بمصر - (على بك الكبير) ولولا خيانة زوج ابنته له لما استطاع العثمانيون مواجهته ... بل إن المماليك ظنوا أن الغزوة الفرنسية كانت بتدبير من السلطان العثمانى، وواجهوا مندوبه البائس فى مصر باتهامهم هذا(١).

فهل جاء نابليون الغازى لتحرير مصر من الأتراك المستعمرين؟ أليس هذا القول من اللعب بالألفاظ أو اللعب بعقولنا؟ ومن كان يحكم فى ذلك الوقت؟

وهكذا يمضى الخط التنصيرى والتخريبى حاملا معول الهدم فى تاريخنا .. فهذا (دومينيك سورديل) صاحب كتاب (الإسلام) (٢) يعالج تاريخنا وكأنه يعالج حركة وثنية غامضة ويقول عن الرسول: (إننا لا نعرف الكثير عن شخصية محمد قبل تبشيره بالإسلام،

---

(١) محمد جلال كشك (ودخلت الخيل الأزهر) انظر عرضا له فى كتاب العقل المسلم للدكتور عبد الحليم عويس.

(٢) نشر دار المنشورات العربية ببيروت (ترجمة خليل الجر).

ولانعرف بالتأكيد إلا تاريخ هجرته من مكة إلى المدينة) مع أن حياة الرسول قبل البعثة أوضح حياة بالنسبة لكل العظماء والأنبياء .. وحياته فى مكة تكاد تعرف يوما بيوم ..!! ويستمر (دومينيك) فى تشويه حروب النبى وفى تشويه تاريخنا كله .

وفى كتاب آخر يحمل الاسم نفسه، وقد ألفه (هنرى ماسيه) تتتابع الأخطاء نفسها عن حياة النبى وتطور الحياة الإسلامية والنظر إلى «محمد» على أنه ليس نبيا وعلى أن القرآن من صناعته(١) وأما (م- س - ترتون) صاحب كتاب (أهل الذمة الإسلامة)(٢) فقد عمد إلى تشويه التسامح الإسلامى، فيصور (الأقباط) فى مصر والشام على أنهم مضطهدون طيلة العصر العباسى وما تلاه ... وهو يجعل المسلمين دائما سبب أية فتنة طائفية تقع، مع أنه لم يملك إلا الاعتراف بطغيان الأقلية الصليبية واستبدادها فى كثير من الأحايين .

ويأتى (كارادوفو) الفرنسى صاحب كتاب (مفكرو الإسلام)(٣) ليسير على الدرب نفسه ويصف الخلفاء بما ليس فيهم، فالمنصور العباسى كان منجما، و(أم الرشيد) قامت بوضع السم للهادى أخى الرشيد حتى يخلو الأمر لابنها، ويصور الخليفة هارون الرشيد - شأنه فى ذلك شأن جورجى زيدان وغيره - بالصورة نفسها التى صورتها ألف ليلة وليلة وكتاب الأغانى للأصفهانى : بل إنه ليكابر ويقول بأن روايات ألف ليلة ذات طابع تاريخى، وهو يتمادى فى تخبطه فيرى أن «هرورا» سياف الرشيد كان يقطع الناس إربا لأقل هفوة، ويرى أن البرامكة قد نكبهم الرشيد ظلما، وربما أن هناك

---

(١) نشر محمد جواد مغنية الترجمة د/مصطفى الرافعى.
(٢) نشر دار المعارف بمصر ترجمة د/حسن حبشى.
(٣) ترجمة على زعيتر. نشر بيروت (الدار المتحدة للنشر).

زواجا اسميا تم بين (العباسة أخت الرشيد) . وبين جعفر البرمكى، وهى الأسطورة التى نسج حولها أوهامه (جورجى زيدان) .. وحتى (المأمون) جعله (كارادوفو) محبا لعادات الفرس السامانيين، وأما صلاح الدين الأيوبى فكان عند (كارادوفو) مرائيا نفعيا يتظاهر بأنه سنى غيور ... والويل «لمحمد الفاتح» لأنه بطل إسلامى وفاتح عظيم ولهذا يعتبره «كارادوفو» - لهذا السبب - متقلب الخلق عنيفا جافا!!.

وبالإضافة إلى هذا الحشد الغريب من الافتراءات يضيف كارادوفو (صراحة) أخرى حول المؤرخين العرب المسلمين المعتمدين لديهم . أى لدى المستشرقين فيقول : إن مؤرخى الشرق الإسلامى لا يتمتعون بالشهرة فى الغرب، والمؤرخون الذين عرفوا فى الغرب ليسوا مسلمين، إن المؤرخين المعروفين لديهم هم (جرجس، ابن العميد الملقب بالمسكين - (ت ١٢٧٣م) والشماس القبطى بطرس الراهب وبطريق الإسكندرية المشهور (يوتخيوس) و (اليعقوبى بن الصبرى).

أما عشرات المؤرخين الموثقين المسلمين بدءا من مؤرخى السيرة والمغازى ومرورا بالطبرى وابن الأثير وحتى المقريزى وابن كثير وابن خلدون، وغيرهم فهم غير معروفين فى الغرب .

ولهذا فإن (كارادوفو) نفسه لم يقدم من بين مؤرخى الشرق الإسلامى المعاصرين إلا (جورجى زيدان) ذلك المعول الهدام فى تاريخنا، والذى ثبت ولاؤه المطلق للمحافل الماسونية وللتوجيهات الاستشراقية والذى قام بتحريفات فاحشة فى تاريخنا فى تلك السلسلة التى سماها (روايات تاريخ الإسلام) (!) وتاريخ الإسلام منها براء!!.

والحق أن كل ما كتبه المؤلف من مدح لجورجي زيدان يؤكد المنهج الذي أشرنا إليه سابقا ، وهو المنهج الذي يمدح المفسدين (كهولاكو وأكبر) ويذم المصلحين كصلاح الدين الأيوبي ومحمد الفاتح .

لكننا لا نغفل هنا لمحة للمؤلف تضم إلى لمحاته (الصريحة) السابقة وهي لمحة تؤكد رأينا في جورجي زيدان - فكراديفو يأسف لموت (زيدان) ويشير إلى أن المستشرقين فقدوه منذ زمن قليل، فكأنه يعتبره - وهو عربي - مستشرقا وهذا ما نميل إليه!!.

لقد كان - بحق - كارل بروكلمان (ولد في ألمانيا عام ١٨٦٨) - واحدا من المفكرين الذين بذلوا جهدا كبيرا في مجال التاريخ الإسلامي والأدب العربي، فكتاباه: تاريخ الشعوب الإسلامية وتاريخ الأدب العربي من أهم الكتب التي ألفها المستشرقون ومن أحظاها لدى القارئ العربي ، لكن بروكلمان - على الرغم من هذا - لم يستطع التخلص من المناخ نفسه الذي يفرض (الفكرة السائدة عن الإسلام) على المستشرقين.

فبروكلمان في (تاريخ الشعوب الإسلامية) يعتبر الحجر الأسود وثنا يعبده المسلمون [١] وهو يقول إن النبي اعترف بثلاثة آلهة في الكعبة في سنواته الأولى[٢] ويتهم النبي بأن صلته بالوحي كانت صلة ظنية احتمالية)[٣]

ويرى أن القرآن قد انبثق عن اليهودية والنصرانية وكيفه محمد تكييفا خاصا وفقا لحاجات شعبه الدينية[٤] ... ويرى أن الرسول أرضى اليهود بتشريع صيام رمضان[٥] ... ويتهم خالد بن الوليد

(١) افتراءات فيليب حتى وكارل بروكلمان

(٢) المرجع السابق ٩٥

(٣) المرجع السابق ١٠٠

(٤) المرجع السابق ١٠٤

(٥) المرجع السابق ١٠٥

بقتله مالك بن نويرة من أجل زوجته، وفق الرواية الكاذبة التى أشاعها بعضهم...(١) ويرى أن ثراء عثمان غفر له عند الرسول النقص فى كفاءته الشخصية(٢) ويصف المغيرة بن شعبة بأنه انتهازى لا ذمة له ولا زمام(٣) ... وسار فى قضية العباسة أخت الرشيد وفق المنهج المنحرف نفسه(٤) .

ونتابع صفحات هذا الغزو التنصيرى لتاريخنا، فنجدها عند جل المستشرقين من أمثال لامنس ، موير ، ومرجليوث، ونولد كه، ودوزى وكيتانى، ومارسيه وجولد زيهر وإسرائيل ولفنون (اليهودى) وغيرهم.

وحتى بعض المستشرقين الكبار المشهورين بشئ من الحيدة والإنصاف .. لم تخل كتاباتهم من سقطات كبيرة، فجوستاف لوبون صاحب كتاب (حضارة العرب) عاش يؤمن بأن غير الأوربى فى مستوى «القرد» مهما تعلم وتحصل على الدكتوراه فى الحقوق والاداب (٥) وآرنولد توينبى يعتبر عودة الإسلام لقيادة الحضارة من الأخطار الضخمة وتمنى أن لا يحدث ذلك(٦).

بيد أن (فيليب حتى) يعتبر من أكثر من احتشدت كتبهم بالافتراءات فى نطاق التاريخ الإسلامى، مع محاولة أن يظهر بروح علمية منصفة

(١) المرجع السابق ١١٥.
(٢) المرجع السابق ١٢٠.
(٣) المرجع السابق ١٢٣.
(٤) المرجع السابق ١٢١.
(٥) انظر نظريته تلك فى كتابه : السنن النفسية لتطور الأمم وفلسفة التاريخ.
(٦) انظر الصفحة الأخيرة من كتابه (الإسلام والغرب والمستقبل).

وتقديمه كثيراً من كلمات المدح للحضارة الإسلامية.

ومشكلة فيليب حتى (ونحن نقدمه نموذجا للمستغربين من العرب النصارى) أنه لبنانى الأصل ينتمى أصلا لحضارتنا وقد تفيأ ظلالها، لكن بعد أن تخرج من الجامعة الأمريكية ببيروت سنة ١٩٠٨ ذهب إلى أمريكا حيث حصل على الدكتوراه (١٩٢٥) وعاش فى أمريكا بعد ذلك متدرجا فى الوظائف الجامعية، وحصل على الجنسية الأمريكية وأصبح مستشارا فى معاهد الاستشراق وأجهزة الاستخبارات ورئيسا لقسم اللغات الشرقية ... ومن خلال كتبه (أصول الدولة الإسلامية) و (سوريا والسموريون) و (تاريخ العرب) و (الموجز) و (المطول) و (أصول الشعب الدرزى وديانته) و (تاريخ سوريا ولبنان - وفلسطين)، استطاع أن يبث كثيرا من الأفكار المزيفة حول تاريخنا، ولم يكن أمينا فى تقديم حضارتنا للأوروبيين ...

إن (حتى) ينفى كل معجزات الرسول ما عدا القرآن، ويقول إن القرآن لم يعترف إلا بهذه المعجزة الوحيدة(١) مع أن القرآن والحديث أكدا وجود معجزات أخرى للرسول كانشقاق القمر، والإسراء والمعراج، ونبع الماء من بين أصابعه ومعجزة الغار، وسراقة وغيرها. ويتهم (حتى) الصحابة (باتفاق) على موضع «السقيفة»، فيقول (ولعل مبايعة أبى بكر كانت مطابقة لمشروع دبر قبل ذلك بينه وبين عمر وأبى عبيدة)(٢) وهو اتفاق وهمى اخترعته عقول مريضة ولم يقم عليه أى دليل، وقد رد عليه كل الذين كتبوا بإنصاف فى تاريخ الإسلام وفى النظريات السياسية الإسلامية.

---

(١) تاريخ العرب المطول ١/١٧٧ نقلا عن (افتراءات فيليب حتى - عبد الكريم بار ص ٤٥)

(٢) المصدر السابق ٤٧

ويتكلم عن سياسة عمر فى إدارة الدولة فيرى أن عمر يميل إلى الصفة العسكرية والاشتراكية وأنه وضع الدستور الفكرى الذى جعل للعروبة سموا، وللمؤمن العجمى درجة أسمى من غير المؤمن.

وأقل ما يرد به على هذا الادعاء سلوك عمر نفسه ، وتهديد أحد الصحابة له بتقويمه بالسيف لو وجدوا فيه اعوجاجا ... فهل هذا يتناسب مع الحكم العسكرى الاشتراكى؟ فضلا عن أن استعمال كلمة (اشتراكية) المعاصرة إسقاط فاسد على تركيبة حضارية مختلفة تماما لها أصولها ونظمها المتكاملة . ويعزو (حتى) الحماسة البريئة فى الفتوحات إلى الدافع الاقتصادى [1] وهذا أمر منتظر من (حتى) الذى أراد بمشيئته أن ينتمى إلى حضارة مادية فهو لن يستطيع فهم الدوافع الروحية ... أما الجزية فقيمتها المادية تنفى هذا ، وقد كان المسلمون يردونها حين يعجزون عن الدفاع عن أهل الذمة ... وقد رد على هذه الشبهات (توماس أرنولد) فى كتابه (الدعوة إلى الإسلام) ...

وبما أننا لا نستطيع - فى هذه العجالة - مناقشة (حتى) فى كل آرائه ، لأن المناقشة الصحيحة لها تستوجب صفحات طويلة، بينما المناقشات العابرة تضر بالقضية ... فنحن - بالتالى - سنشير إلى بعض أغاليطه ... ونعتقد أن أكثرها من الوضوح بحيث يدرك حقيقته جمهور المسلمين، فضلا عن المختصين ...

يرى (حتى) أن المشكلة الأولى لعلى بن أبى طالب - رضى الله عنه - كانت فى التخلص من منافسيه فى الوظيفة الكبرى (الخلافة) وعلى رأسهم طلحة والزبير اللذان كانا يمثلان الحزب الملكى ...

---

(١) المصدر السابق ٥٥،٥٢.

وقد انضمت عائشة إلى صفوف المتمردين ضد على فى البصرة[1] ...

ونحن – فقط – فى هذا المقام – نحيل القارئ إلى ما كتب فى هذا الموضوع فى الطبرى وابن الأثير ، وأبى بكر بن العربى صاحب العواصم من القواصم، والذهبى صاحب طبقات الحفاظ والدكتور إبراهيم شعوط فى (أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ) ... فهذه الدراسات وغيرها كثير – قد عرضت هذه القضية بحياد وموضوعية يستحقان التنويه.

ولم تكن الدولة الأموية لتمر دون تعريض سواء بشخص معاوية – رضى الله عنه – أم بخلفائه ... وقد زعم (حتى) أن عبد الملك بن مروان قد ابتنى فى بيت المقدس الصخرة وكان غرضه أن يحول إليها أفواج الحجاج من مكة والتى استقر فيها منافسة ابن الزبير[2].

وأظن أن هذا الادعاء يكشف جرأة (حتى) بطريقة مزرية ... فعبد الملك بن مروان فقيه عابد ناسك (كما وصفه ابن حجر والكتبى وابن الأثير وابن كثير) وقد احتج بقضائه الإمام مالك فى الموطأ ... فكيف يتسق هذا مع هذا الكفر الذى يرميه به – بلا سند – المؤرخ حتى ؟!

وهو يتهم عبد الملك وابنه الوليد وهشام بتناول الخمور[3] معتمدا على (الأغانى) الذى لم يقصد بـه صاحبه أن يكون تاريخا ... لكن

---

(١) المرجع السابق ٦١

(١) المرجع السابق ٧٦

(٣) المرجع السابق ٧٨

(حتى) وأمثاله يصرون – بالقوة - على أن يكون الأغانى وألف ليلة وليلة هى المصادر التاريخية التى يتخذون عليها ... فأى منهجية هذه ترى ؟!

وفى حديثه عن الدولة العباسية ينتهى إلى الستعلمات نفسها التى انتهى إليها غيره من المستشرقين مثل قصة العباسة وعلاقتها بنكبة البرامكة [(١)] وهلم جرا.

وهكذا تتضح لنا خيوط الهجمة التنصيرية والعلمانية على التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية. والهدف الأساسى الذى تسعى إليه هذه الهجمة هو فك الارتباط الروحى والوجدانى والعقلى الذى يربطنا بهذا التاريخ ولا سيما بفترة الاحتجاج التشريعى فيه، وهى فترة الرسالة والراشدية، ومتى ما تم هذا .. فإن تجريدنا من بقية سور انتمائنا للإسلام ميسور.. وهذا هو هدفهم الكبير!!

تاريخنا والغزو الماركسى :

عندما نجحت الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ فى الوصول إلى الحكم فيما عرف باسم (الاتحاد السوفيتى) وقامت على أثرها حركة (ماوتسى تونج) فى الصين كان كافيا لدى كثير من الدول النامية كى ينظروا بإعجاب إلى هاتين التجربتين.

وقد ساعد على هذا الإعجاب تلك الكراهية التى كانت قد تأصلت نحو الدول الغربية الاستعمارية التى تمثل القوى المناهضة (فى حدود مصالحها !!) – على المستوى الظاهرى الرسمى على الأقل - للكتلة الشيوعية ... ومع الانبهار بدأ الكثيرون ينظرون إلى هذه القوة

---

(١) المرجع السابق ص ٨٦

الجديدة على أنها المخلص من الاستعمار التقليدى، وبدأت جماهير كثيرة من المثقفين تقرأ الفكر الماركسى بعين منبهرة كليلة عن كل عيب ... بل وبدأت قلة تدعو إلى ضرورة - بل حتمية - السير فى الطريق نفسه الذى سار فيه الروس والصينيون ... وبدأوا يستعيرون المناهج الشيوعية فى تحليل حركة الحياة وفى التفسير الاقتصادى للتاريخ.

ولم يقف أمر التورط فى استعارة هذا المنهج عند حدود الذين «تمركسوا» فحسب، بل إن هذا المنهج قد رشح فى كتابات غيرهم من الذين يمكن اعتبارهم أنصاف «متمركسين» .. أو أقل من ذلك !! وعند هؤلاء وأولئك كان ثمة تركيز واضح على عدد من المبادئ أهمها :

١ - رفض التفسيرات الغيبية (وهم يستعملون غيبية تمويها وبديلا لكلمة الدينية أو الإسلامية).

٢ - رفض أن يكون للدين تشريعات دنيوية والتركيز وفق فهم خاص على حديث (أنتم أعلم بأمور دينكم...).

٣ - التركيز على تشريح مجتمعاتنا الإسلامية فى التاريخ فى صورة صراع طبقات أو فى صورة محافظين وثوريين .. وأغنياء وفقراء ... ويمين ويسار.

٤ - التركيز على التفسير الواحدى للتاريخ (العامل الاقتصادى الأوحد) تقريبا فالعوامل الأخرى تكاد تكون عوامل ثانوية.

٥ - لصق الدين بالرجعية والتخلف ، والعمالة للأثرياء

* * *

وفى كتابات كثيرين سيطرت نغمة أن الإسلام دين الفقراء ، ودين الحرية ، ودين المساواة، ودين العدل الاجتماعى، وبدأوا ينبشون

تاريخنا ليكتشفوا - وفق أسلوب فرض المذهب على المنهج - كل الشواهد التى تؤكد نظريتهم .... وبدأوا يحللون الأحداث التى وقعت فى عهد عمر وعثمان وعلى ومعاوية - إلى أن وصلوا إلى تاريخنا الحديث - تحليلا يخدم نظرتهم المبدئية المنطلقة من المادية التاريخية، وقد التقوا مع العلمانيين فى تضخيم المشكلات والخلافات التى وقعت بين المسلمين بحكم أنهم بشر، وقد استثمروها لخدمة أفكارهم أسوأ ما يكون الاستثمار، فالفتنة الكبرى (وهى كبرى فى رأيهم وليس فى رأينا ...!) أصبحت طبقة عازلة عن رؤية عظمة تاريخنا وحضارتنا ، وأصبحت بيت القصيد فى دراسات هؤلاء !! ولم تعد صراعا على فقه الطوائف الإسلامية لأسلوب الحكم أو خلافا غذاه خصوم الإسلام ، بل أصبحت حركة ثورية ذات محتويين اقتصادى واجتماعى يقف منها (عثمان بن عفان) رمزا للقوة التقليدية المحافظة على مصالح الطبقة الثرية والنظام الإقطاعى ويقف فيها أبو ذر والثائرون، رمزا للقوة التقدمية المناضلة!!.

لم ينج «طه حسين» - مع ميوله الليبرالية - من هذه الآفة، فوقع فى (الفتنة الكبرى) على شئ من التفسيرات ... وذلك عندما نظر إلى مقاومة قريش للرسول على أنها ليست مقاومة لعقيدة التوحيد أو للدين، وإنما هى مقاومة لدعوة مساواة السادة بالعبيد ولمبدأ عدم التفرقة بين الأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء.

وبعد «طه حسين» -انهمرت سيول الكتابات الشيوعية فى لبنان ومصر وسوريا والعراق وبعض بلاد الخليج العربى، وبعض بلاد المغرب العربى، ولا تكاد تخلو بلد من المتأثرين بهذا المنهج اليسارى، بل لقد ظهرت مدرسة تحاول استخدام منهج ملفق يسمى (باليسار الإسلامى) يركز على وجود المكافحين ويكتشف العناصر الاقتصادية والمادية فى

تراثنا وتاريخنا . ومع بداية الستينات من هذا القرن الميلادى - أى منذ ربع قرن تقريبا - تمكنت هذه التكتلات من التعبير عن نفسها من خلال أبرز المواقع تأثيرا متلفعة بنوع من الشيوعية المعتدلة...

وفى مجلة الكاتب - المصرية - استطاع رئيس تحريرها الأستاذ (أحمد عباس صالح) أن يوجه المجلة وجهة يسارية ثابتة، وقد كتب فيها سلسلة مقالات تحت عنوان (الصراع بين اليمين واليسار فى الإسلام) عالج فيها الأحداث التاريخية فى عهد رسول الإسلام والخلفاء الراشدين ... مقسما هذا الجيل الإسلامى الفذ إلى يمين ويسار متصارع ... دون أن يلتفت الكاتب إلى أن هذا الإسقاط (المصطلحى) الحديث الخاضع لتطورات مجتمعات معينة من الخيانة للمنهج العلمى إسقاطه على عصور مختلفة وعلى مجتمعات ربما لم تعرف مصطلح (الطبقية) بهذا المعنى الذى عرفه تطور المجتمعات الأوروبية، ومع ذلك فمن أجل (المذهب) فلا ضير فى أن يذهب (المنهج) العلمى إلى الجحيم!!.

ولقد بلغت الجرأة بالكاتب إلى أن يجعل الرسول صلى الله عليه وسلم (زعيم اليسار) فهو فى رأيه - (زعيمه وواضع مبادئه الأساسية) ويعلق أحد الكتاب الإسلاميين(١) على هذه الفرية الهابطة بقوله: ولكن كيف قبل الرسول (اليسارى) هؤلاء اليمينيين فى صفوف الإسلام وكيف أثنى عليهم وبشرهم بالجنة؟.

لقد كان بين السابقين إلى الإسلام أبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، كما أسلم على بن أبى طالب ، وزيد بن حارثة وأسلم بعد ذلك خباب بن الأرت وعمار بن ياسر وصهيب وبلال ...

(١) انظر د/ محمد فتحى عثمان :التاريخ الإسلامى والمذهب المادى فى التفسير - الدار الكويتية ص ١٠٨. وقد ذكرنا سلفا أن الأستاذ أحمد عباس صالح قد ترك هذا الاتجاه!!

وهكذا سبق للإسلام أغنياء وفقراء، أقوياء وضعفاء ، أحرار وموال عرب وعجم ، تجار رأسماليون وعمال محترفون... فأين كان اليمين فى هؤلاء؟وأين الوسط وأين اليسار؟ وكيف أغضى زعيم اليسار عن وصولية اليمينيين، أو كيف تقبل اليمينيون ثورية اليسار.(١)

وأيضا كيف كان هؤلاء على عهد الرسول كتلة واحدة يضحى غنيهم بماله لفقيرهم ويشترى غنيهم بماله العبيد، ويرفض أحدهم ثلاثة أضعاف الربح فى تجارة قدمت له ويهبها لله : أى للفقراء والمساكين مؤثرا ما عند الله!.

أليس من الهبوط العقلى - باسم المذهب - أن ينسج بعضهم خيالات يخلعها على الآخرين حتى ولو لم تكن هذه الخيالات بنت بيئتهم أو مناسبة لحقيقتهم؟!!.

ويمضى الكاتب - دون اعتبار للمنهج - لتصنيف الصحابة إلى يمين ويسار، وإلى رمى اليمين من الصحابة (وزعيمه عثمان ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وطلحة) وغيرهم بالتآمر على اليسار لدرجة أنه حملهم مسئولية قتل عمر بن الخطاب الذى جعله الكاتب زعيم الوسط الذى انتهى ثوريا... ولهذا قتل بمؤامرة يمينية أداتها أبو لؤلؤة المجوسى...

وهو تحليل متهافت يعتمد على أوهام مختلقة اختلاقا لكى يستفيد منها صاحب (المذهب) على حساب أية (منهجية علمية)... أما أبو ذر وعلى بن أبى طالب - رضى الله عنهما - فهما أبرز زعماء اليسار

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٨

وبعد جهاد ومعاناة نجح اليسار فى تولى السلطة عندما وصل على إلى الحكم!!.

وهكذا نجد أسلوبا فجا فى تشريح الوقائع، وهو أسلوب لسنا بسبيل الرد عليه فلقد عالجته دراسات كثيرة وأصبح الآن كلاما ممجوجا لعل أصحابه أصبحوا يخجلون منه...

لكن هذا الغزو المادى لتاريخنا - فى كل مراحله ولا سيما الفترة الأولى - ظهرت له تكتلات متعددة متعاونة مستخدمة قدرتها الجلية، ومستخدمة الثقافة التقليدية التى حصر كثير من أصحاب الاتجاه الإسلامى أنفسهم فيها.

ولقد عرفنا من هذه التكتلات اليسارية فى المجال التاريخى كثيرين من بينهم «جلال العظم» صاحب نقد الفكر الدينى والدكتور «محمود إسماعيل» صاحب الحركات السرية فى الإسلام والدكتور «محمد خلف الله» صاحب الفن القصصى فى القرآن والدكتور «راشد البراوى» مترجم رأس المال، (وجلال العالم)، (ومحمود أمين العالم)، (ومحمد أنيس) (وصبحى وحيد)، (ومنح الصالح)، (وعبد العظيم رمضان)، و(نديم البيطار)، و (حسن حنفى)، و (عبد الرحمن الشرقاوى) وغيرهم.

والحقيقة أن غزو (التفسير المادى) لتاريخنا، لم يقف عند حدود الماركسيين وحدهم، ولا عند حدود اليساريين الذين يقولون إنهم يرفضون الماركسية فى العقيدة ويقبلونها فى الرؤية للتاريخ .. وإنما تجاوز الغزو هؤلاء إلى قطاع كبير من المؤرخين الذين أصبحوا - بحسن نية غالبا - يركزون على تأثير العوامل الاقتصادية،

ويبالغون فى قدرتها، حتى لتكاد العوامل الأخرى العقيدية والفكرية والأخلاقية والاجتماعية وغيرها من العوامل الفاعلة فى التاريخ تتضاءل أمام هذا التركيز على دور العامل الاقتصادى ... مع أن التاريخ يمدنا بعشرات من الحركات التى ضحى الناس فيها بحياتهم وأموالهم وأوطانهم فى سبيل القيم الأعلى للإنسان فى هذه الحياة ... وبالطبع لا يعنى هذا - من جانبنا - إنكارا لدور العامل المادى أو تقليلا لشأنه!!.

تاريخنا والتفسيرات القومية :

لقد تعرض تاريخنا - كما تعرضت كل قيم حياتنا - لتغيرات قومية منحرفة كل منها يحاول كسب كل المعالم الوضيئة فى تاريخنا لحساب قومه، ورمى الأقوام الاخرين الذين أسهموا فى صناعة الحضارة الإسلامية بكل الأخطاء ... فقومه - وحدهم - هم المبدعون، واليهم ينسب كل الفضل، بينما الأقوام الأخرون هم الخاطئون فى كل موقف، ولا فضل لهم فى هذا التاريخ ولا هذه الحضارة الإسلامية... ونكتفى فى هذا المقام بضرب بعض النماذج لنعرف كم كانت هذه التفسيرات القومية متجنية وبلهاء.

إن فتح المسلمين للمغرب والأندلس كان فتحا إسلاميا، ولم يكن فتحا عربيا (قوميا)، ذلك لأن من أبسط الأمور البدهية أن القائمين به كانوا من جيل التابعين (ومنهم صحابة) ولم يكن يحرك هؤلاء إلا الإسلام، وقد كان الأعجمى الصالح عندهم أفضل من العربى الكافر والفاسق، حتى ولو كان هذا العربى عم النبى عليه الصلاة والسلام.

ومع هذه البدهية فثمة حقائق أخرى تاريخية تدين تشريح الفتح الإسلامى للمغرب بمبضع قومى عربى أو غير عربى...

إن الفتح الإسلامى للمغرب لم تستقر أقدامه ويدخل مراحل حاسمة

من الفتح إلا بمساعدة عناصر غير عربية، فمن المعروف أن فتح المسلمين للمغرب هو أطول الفتوحات الإسلامية وقد تعرض للانتكاسات فى عدد من المواقف، فقد قتل (عقبة بن نافع)،.. وصاحبه أبو المهاجر دينار ، وذلك سنة (٦٤هـ) وقد قتل زهير بن قيس البلوى سنة (٦٩هـ) ونلاحظ فى مقتل زهير أنه كان بعد أكثر من أربعين سنة من بداية الفتح، فالحالة كانت كما نرى غير طيبة، لكن أقدام الفتح فى الحقيقة لم ترسخ على نحو مؤثر إلا من خلال عدد من المواقف أهمها :

١ - سياسة أبى مهاجر دينار فى تأليف البربر مما جعل «كسيلة» زعيم البرانس يسلم ، ويسلم قومه البرانس بإسلامه ، وبواسطة مساعدتهم دخل أبو المهاجر دينار أرض الجزائر حتى تلمسان ولم يكن أحد قبله قد استطاع دخول الجزائر . أى أن أبا المهاجر فتح الجزائر بواسطة الجزائريين البرانس أنفسهم.

٢ - سياسة حسان بن نعمان فى تأليف البربر بعد أن هزم فى موقعة الأوراس أمام الكاهنة، ومن ثم سخط البربر على الكاهنة بعد أن أحرقت مزارعهم، وانضموا جماعات وأفراداً إلى حسان، حتى أولاد الكاهنة أنفسهم، مما مكن حسانا من هزيمة الكاهنة سنة (٨٠هـ) فى موقعة قابس.

٣ - أيضا فإن حسانا إلى جانب استعانته بالبربر ضد الكاهنة استعان بهم فى تحضير البلاد ، كما أنه استجلب إلى المغرب ألف أسرة مصرية (حرفية) للنهوض بالصناعة فى البلاد.

فالفتح الحقيقى للمغرب كان بواسطة أجناس إسلامية متعددة على رأسها أصحاب البلاد أنفسهم فكيف يسمى بالفتح العربى للمغرب إذن ؟!! إنه فتح إسلامى وكفى!!.

وأما فتح الأندلس فقد كان إسلاميا حتى بلغة الإحصاء، فإننا لو أحصينا الجيش الفاتح الذى ذهب مع طارق بن زياد (البربرى) .. سواء السبعة الآلاف الأولى أم الخمسة الملحقة بها فسوف نجد أن معظم الجيش ليس عربيا إلا إذا كانت كلمة العروبة مرادفة لكلمة الإسلام حسب الاستعمال التجوزى الكريم فى حضارتنا قبل أن تظهر لعنة القومية التى تحارب الإسلام وتتنكر له باسم العروبة عند العرب، والطورانية عند الترك، والفارسية عند الفرس.

ولو استعرضنا تاريخ الأندلس فسوف نجد أن العرب كانوا كغيرهم لهم أخطاؤهم وحسناتهم... وقد دخل زعماؤهم فى صراع مرير على الحكم، متلفعين برداء العروبة المستعلية مثل الصميل بن أبى حاتم، ويوسف الفهرى، وبقية الولاة الذين ظهروا فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى، ولعل مذابح الحكم الربضى (١٨٠ - ٢٢٠ هـ) البشعة للمولدين أبناء البلاد الأصلاء لن تشرف كثيرا المتمسكين بأمجاد النزعة القومية، كما أن الفتنة الطائفية (٢٩٩ - ٤٢٢ هـ) التى كانت من أسباب سقوط الأندلس، والتى سقطت فيها طليطلة قلب الأندلس ... هذه الفتنة تحمل فيها العرب كغيرهم أوزار الاغتصاب والنهب والاستهانة بالدماء، ولم يقدموا نموذجا أفضل من غيرهم، وقد كادت الأندلس تسقط لولا أن قيض الله لإنقاذها رجالا من صميم صنهاجة المسلمة العظيمة (البربرية)- من ناحية الأصل- بقيادة البطل العظيم «يوسف بن تاشفين» رضى الله عنه وابن عمه العظيم أبى بكر بن عمر اللمتونى!!.

إن الاعتزاز القومى باسم العروبة لن يخدم العرب ولا المسلمين، وأن من شأنه دفع الأجناس الأخرى للبحث عن دورها فى الحضارة الإسلامية، مع أن الدور كان مختلطا لا فضل فيه لعربى على عجمى إلا

بالتقوى ، ومن الصعب توزيع هذه الأمجاد، لأن الآباء لم يتركوها بطريقة تقبل القسمة ، ولأنهم لم يقوموا بها لكى نتوزعها نحن، بل قاموا بها حسبة إسلامية خالصة لله بصورة تعاونية تكاملية ... وأيضا لقد قاموا بها لنضيف إليها لا لنتقاتل عليها. واستعمال المصطلحات الشعوبية ليست فى مصلحة الأمة العربية ، ولقد استطاع أعداء الإسلام من مستغربين ومتمركسين استغلال هذه النزعة فحاولوا فصل العرب عن المسلمين بمبضع الاستعلاء الكذوب!!.

إن مجال حصر التجنيات القومية على تاريخنا تمتد إلى كل أجزاء هذا التاريخ وحضارته، فأصحاب المنظار القومى، لم يستحوا عن طمس الحقائق وتلوينها بمنظارهم القومى، حتى شخصيات الصحابة والتابعين وحتى صلاح الدين الأيوبى الكردى وسيف الدين قطز المملوكى، والسلطان عبد الحميد التركى، كل هؤلاء يقومون بمقياس شعوبى فيحاول بعضهم سرقة أمجادهم لحساب العرب ثم مع ذلك لا يستريحون إليهم — حتى مع حسناتهم — لأنهم لم يكونوا فى النهاية عربا ... وحتى موقف السلطان عبد الحميد رضى الله عنه من فلسطين، والذى كان من أشرف المواقف فى التاريخ الحديث، حتى هذا الموقف يهال عليه التراب، ولا يكاد يذكر ، ويصور السلطان عبد الحميد بصورة مزرية لا تليق بعظمته وسمو دينه.

إن النظرة القومية لتاريخنا — بخاصة — نظرة عمياء ظالمة عنصرية لا تخشى الله ولا تهمها الحقائق الموضوعية ... وإن خطرها فى تأجيج الفتن كبير ، وأنا لا أبرىء أصحابها من الخضوع للأهداف التمزيقية حتى ولو لم يحسوا بذلك .

إن الحضارة الإسلامية وتاريخها ميراث لكل المسلمين لا يمكن تقسيمه، ومن أراد الرفعة فليتقدم بهذا التراث مضيفا إليه وبانيا فوقه.

أما الذى يريد التمزيق واغتصاب حقوق إخوانه وشركائه فى صناعة هذه الحضارة، فهذا فى حقيقته عدو مبين لهذه الخصائص العظيمة المتكاملة التى صنعها كل مسلم ، عربيا كان أو مولى، تركيا أو بربريا أو فارسيا ، فكلهم ساهم فيها باسم الإسلام ، وكلهم أرادها إسلامية ، ويجب أن تبقى - وسوف تبقى بإذن الله - إسلامية إلى يوم القيامة.